عبقرية الإسلام في النفاق

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: عبقرية الإسلام في النفاق
تـأليـــــــف: رابحة فرج
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القـطـــــع: 25X17.6
سنـة النشـر: 2024

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 14034 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 – 519- 0

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ 49351

ت: 01066736765 - 01015766014 / shahnda71@gmail.com

9 789778 445190

عبقرية الإسلام
في النفاق

إعداد

رابحة فرج

لفظ المنافق وعبقرية الاستخدام

هل عرف العرب لفظ المنافق قبل ظهور الإسلام ؟

لم يعرف العرب ولم يستخدموا لفظ المنافق على النحو الذي تم استخدامه في القرآن والسنة، إذ استخدم للتعبير عن الحالة النفسية المزدوجة التي يعيشها المنافق فهو يظهر شيئا و يخفي شيئا آخر وهي حالة دخيلة على أخلاق العربي المعتز بقبيلته المتغني بشهامته وشجاعته، فهي صفات تتناقض تماما مع أخلاق المنافق، فهو يظهر الإسلام في حين يبطن الكفر والعداوة للدين كإعلان صريح عن جبنه وخثة أخلاقه. فقد كانت ظاهرة النفاق ليست ظاهرة جديدة على البيئة العربية الصحراوية فحسب بل ويصعب تصور المقصود بها فهي مناقضة تماما لكل الأعراف والتقاليد والأخلاق العربية التي تقوم على الشجاعة والجرأة والشهامة والمروءة والاعتزاز بالقبيلة، فكانت الحاجة لاستخدام لفظ من هذه البيئة الصحراوية، يستطيع أن يقدم صورة ذهنية تعبر عن حالة الأزدواج والتناقض بين ما يُظهره المنافق وما يُخفيه على النحو الذي أراده الله عز وجل، خاصة وأن النفاق خلق جديد وسلوك لم يعهده العربي أو يألفه في البيئة والثقافة العربية في ذلك الوقت فكانت الحاجة لاستخدام لفظ يحمل في داخله صورة تعبر عن تلك الحالة المزدوجة للمنافق وتوضح المقصود بها بشكل واضح، والسبب المؤكد لتلك الحاجة هي خطورة هذا المنافق على الإسلام والمسلمين، فلابد أن تكون صورته الأجمالية واضحة بمجرد النطق باسمه يعرف المسلم من المقصود. وهنا استخدم الإسلام لفظا من داخل بيئة العرب نعم كان لفظ النفاق معروفا ومستخدما عند العرب، لكنه لم يكن يُستخدم بمعناه الاصطلاحي كما جاء في القرآن والسنة. ثم توالت آيات القرآن في كشف وتوضيح من هو المنافق وما هي صفاته ونواياه الحقيقية غير المعلنة.

فما كان معنى المنافق عند العرب قبل الإسلام؟

يشير علماء اللغة لمعنى المنافق في الجاهلية:

قال ابن منظور في لسان العرب: «.. سمي المنافقُ مُنافقاً للنَّفَق وهو السَّرَب في الأَرض. وقيل: إنّما سمي مُنافقاً لأنه نافَقَ كاليربوع، وهو دخوله نافقاءه. يقال: قد نفق

به ونافَقَ. وله جحر آخر يقال له القاصِعاء، فإذا طُلِبَ قَصَّع فخرج من القاصِعاء. فهو يدخل في النافِقاء، ويخرج من القاصِعاء. أو يدخل في القاصِعاء، ويخرج من النافِقاء، فيقال: هكذا يفعل المُنافق؛ يدخل في الإسلام، ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه ».

نعم كان معنى النفاق معروفا عند العرب، لكنه كان يعبر عن سلوك بعض الحيوانات وهو اليربوع وليس سلوك البشر(خاصة أن العربي كان يتغنى بالشجاعة ويتفاخر بالجرأة والأقدام فلم يكن يناسبه سلوكا كالنفاق فيقول أو يفعل شيئا ثم يظهر عكس ما يبطن جبنا وخوفا من إظهار حقيقة ما يؤمن به)، فهو فعل مأخوذ من النفق الذي تحفره بعض الحيوانات وتجعل له فتحتين أو أكثر فإذا هاجمها عدوها ليفترسها من جهة خرجت من الجهة الآخرى، فكان ملائما أن يسمى به المنافق الذي يجعل له وجهين، فيظهر كل وجه حسب الموقف الذي يتعرض له والطائفة التي يتحدث إليها، مسلم بين المسلمين وهو في الحقيقة مكرها لأظهار ذلك كارها لوجوده بينهم، وكافر بين الكافرين والمنافقين يشعر بينهم بالراحة والاطمئنان فهم أحبائه، هو منهم وهم منه.

أي أنه ومنذ بداية الحديث عن المنافقين واختيار القرآن لهذه الكلمة تجلت عبقرية الإسلام في اختيار الكلمة المعبرة عن هذه الطائفة وعن نفسيتها المريضة المتلونة التي يصعب الوقوف على حقيقتها والتعرف على أغراضها، وهي كلمة يستطيع العربي فهمها واستيعاب المقصود منها، فهي ترسم له صورة واضحة عن المقصود بالنفاق والمنافقين صورة يراها بعينه ويتابعها عند كل محاولة لليربوع الاختباء عن الأنظار، فأدرك أن النفاق ما هو إلا نوع من أنواع المكر والخداع، وهذا هو المعنى المراد أن تكون الكلمة معبرة عنه، أن المنافق هو من اتصف بالمكر والخداع للحذر منه فهو لا يملك شيئا من صفات الصدق والأمانة لا يريد نفعا أو خيرا للإسلام والمسلمين يريد نفسه ونفسه فقط حاقدا كارها للدين وأهله، لا يعرف إلا الكذب والمكر والخداع، فالمنافق سمي بهذا الاسم تشبيها له بالربربوع الذي يجعل لنفقه في الأرض مخرجين القاصعاء والنافقاء، إذا طلب من القاصعاء خرج من النافقاء، فاليربوع أسلوب حياته قائم على المكر والخداع إذا طلب من جحر خرج من الآخر، كذلك المنافق يخرج من الإيمان بوجه غير الوجه الذي دخل به، فظاهر المنافق الإيمان وباطنه الكفر.

وبذلك يمكن القول أن لفظ النفاق لفظا إسلاميا لم يظهر بمعناه الاصطلاحي إلا في القرآن الكريم بعد نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهجرته إلى المدينة المنورة. فقد ارتبط بانتقال الدعوة الإسلامية إلى المدينة ونشأة الدولة الإسلامية فيها، فهو ظاهرة أو إذا أردنا الدقة فيرس أصاب الأمة الإسلامية ولن ينفك عنها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وربما يوضح ذلك سبب حرص المولى عز وجل على تحديد صفاتهم والتحذير منهم، فهم مرجفون مخذلون يسعون لضرب الأمة وهدمها من داخلها ما يجعل عملهم ذو تأثير كبير في المسلمين.

متى ولماذا ظهر لفظ النفاق ؟

كما ذكرنا من قبل لم يكن لفظ النفاق معروفا كسلوكا بشريا يدل على المكر والخداع في الجاهلية وقبل ظهور الإسلام، فقد كان العرب يعبدون الأصنام، وكان لكل قبيلة صنم، فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمذحج: يغوث، ولخيوان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد إسافًا ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللآت في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش.

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى من الأصنام الصغيرة والتي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم.

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العُطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا آخر هو أخيرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به».

أما البقية الباقية من دين إبراهيم - عليه السلام - فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، وأصبح غالبيتهم لا يربطهم بالحنيفية إلا الاسم، وخلت الحنيفية من محتواها العقائدي، فصار الحج مثلا موسما للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة، أما بقايا المعتقدات الحنيفية أُلصق بها الكثير من الخرافات والأساطيروأصبحت لا تمت لدين إبراهيم عليه السلام بأية صلة. مع الإشارة إلى بقاء بعض الأفراد من الحنفاء الذين يرفضون عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من الأحكام والنحائر وغيرها محتفظين بالحنيفية الإبراهيمية كما ورثوها.

وكان النظام السائد بين سكان الجزيرة العربية هو النظام القبلي، كل قبيلة عبارة عن مجموعة من الناس، تربط بينهم وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة القبلية التي ينتمي إليها، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، حيث تتمسك كل قبيلة بهذا القانون في نظامها السياسي والاجتماعي.

ولكل قبيلة زعيم يتم اختياره للقيادة وفقا لمنزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم وغيرها من صفات كريمة وأصيلة يتغنى بها أبناء القبيلة، وتجعل لرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية على أبناءها.

ومن أهم حقوقه الأدبية: احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه.

أما أهم حقوقه المادية: فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، (والصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة (والنشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء (والفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، و لكن مقابل هذه الحقوق، كان عليه واجبات ومسئوليات.

فمن واجباته في السلم: جواد كريم.

وفي الحرب: يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وبيئة طليقة، حيث الصحاري الواسعة تمتد حوله في كافة الاتجاهات مما كان له أكبر الأثر في بنية الشخصية العربية التي اعتادت التحرك بلا حدود أو قيود ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، بل كانوا يعشقونها ويتغنون بها رافضين للقهر والذل فكان كل فرد في القبيلة جندي بها يدافع عنها و ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، بل وينتصر لكل أفرادها سواء كانوا على الحق أو الباطل فقد كان القانون السائد والمعمول به: «انصر أخاك ظالمًا، أو مظلومًا».

والفرد في القبيلة لا يتمتع برأي منفرد أو شخصية مستقلة عن قبيلته، بل هو تبع للجماعة وجزء من كل هو القبيلة قد تذوب شخصيته في شخصيتها.

وليس أدل على ذلك من موقف أبو لهب عندما ألح بني مخزوم على أبي طالب تسليمهم أبا سلمه - أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي - الذي هرب منهم نجاة بدينه، فلما وثبوا عليه ليعذبوه ويفتنوه عن الإسلام فاستجار بأبي طالب وقد كانت والدة أبي طالب مخزومية . فأجاره، فمشى إليه رجال من بني مخزوم وقالوا: يا أبا طالب هبك منعت منا ابن أخيك محمّداً، فما بالك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال: إنه

استجار بي، وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي، فأكثروا عليه النزاع وارتفع الصوت واللغط، عندئذ قام أبو لهب أشد الأعداء للإسلام والمسلمين قائلا: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ماتزالون توثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهن أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد. فأدرك الحاضرون أن موقفهم أصبح ضعيفا فها هو أبو لهب ينحاز لنصرة أبي طالب، وأبو طالب يأبى إلا حماية أبا سلمة فارتدوا خاسرين مدحورين.

كذلك روى الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي بسنده عن ثعلبة بن صغير، وحكيم بن حزام أنهما قالا: لما توفي أبو طالب وخديجة - وكان بينهما خمسة أيام - اجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبتان، ولزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه، فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه فقال: يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت.

وسبَّ ابن الغيطلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل إليه أبو لهب فنال منه، فولى يصيح يا معشر قريش صبا أبو عتبة، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد.

فقالوا: لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك أياماً يأتي ويذهب لا يعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب إذ جاء عقبة بن أبي معيط وأبو جهل إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟

فقال له أبو لهب: يا محمد أين مدخل عبد المطلب ؟

قال: ((مع قومه)).

فخرج إليهما فقال: قد سألته فقال: مع قومه.

فقالا: يزعم أنه في النار .

فقال: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار))

فقال: أبو لهب - لعنه الله - والله لا برحت لك إلا عدواً أبداً وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار، واشتد عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه.

ولم يكن من سبب لموقف أبو لهب هذا إلا عصبيته القبلية.

كذلك ما ذكره إسحاق قال : حدثني الزبير بن عكاشة بن عبدالله بن أبي أحمد أنه حُدث أن رجالا من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد، حين أسلم أخوه الوليد بن الوليد بن المغيرة، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا، منهم : سلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة . قال : فقالوا له وخشوا شرهم : إنا قدا أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحدثوا، فإنا نأمن بذلك في غيرهم. قال : هذا، فعليكم به، فعاتبوه وإياكم ونفسه، وأنشأ يقول

ألا لا يُقتلنّ أخي عُييس* فيبقى بيننا أبدا تلاحي

(والمعنى المراد من بيت الشعر هذا) احذروا على نفسه، فأُقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا .

قال : فقالوا : اللهم العنه، من يُغرّر بهذا الخبيث، فوالله لو أصيب في أيدينا لقُتل أشرفنا رجلا . قال : فتركوه ونزعوا عنه . قال : وكان ذلك مما دفع الله به عنهم .

هكذا كانت العصبية القبلية هي القانون الأساسي الذي تقوم عليه القبيلة، وكان المبدأ أنصر أخاك ظالما أو مظلوما، فلا يقبل العربي لأي سبب كان أي إساءة تمس عزته وفخره متمثلا في الحفاظ والدفاع عن كل أفراد قبيلته مهما بدر منهم.

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية، التي تقيم بها الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضًا كانت تشن الحرب على غيرها من القبائل.

ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية في الجاهلية، حلف الفضول (حلف المطيبين).

وقد عقد بعد شهر من حرب الفجار سنة 590 م توافق عليه بنو هاشم وبنو تيم وبنو زهرة حيث تعاهدوا فيه على: (لا يظلم أحد في مكة إلا ردوا ظلامته). وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحلف قبل بعثته وله من العمر 20 سنة، وقال عنه: (شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبدالله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت).

وكانت الحروب بين القبائل لأتفه الأسباب ودون انقطاع ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار بين قبيلة كنانة وقبائل قيس عيلان والتي سميت بذلك الاسم نظرا لما استحل فيها الفريقان من المحارم بينهما.

فكان العرب يعيشون في ظل هذه الفوضى الدينية، والفرقة السياسية فلم يكن هناك كيانا موحدا يضم العرب وينظم حياتهم، بل قبائل متناحرة لدرجة أن رزق بعض القبائل كثيرا ما يكون في حد سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليل أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنها، وتسبي نسائها وذراريها، ثم تدع ديارها خاوية.

وفي ظل هذه الفوضى سواء الدينية أو السياسية لم تكن هناك حاجة لظهور النفاق بين أفراد القبيلة فكل فرد فيها هو جزء من كل تذوب شخصيته في شخصية قبيلته هدفه الأول والأخير الدفاع عنها وحمايتها من الغزو والهجوم عليها.

تغير الظروف والأوضاع دون ظهور النفاق

ثم ظهر الإسلام بمكة وكانت الفترة المكية الممتدة لثلاث عشرة سنة خالية من ظاهرة النفاق، فقد كانت مليئة بالمتاعب والمشاق، خالية من أية مغانم تذكر، بل لا يوجد ما يدل أو يبشر بقرب مرحلة انفراجة لن نقول ليتمتع فيها المسلمون بالغنائم والأرباح، بل يتمتع فيها المسلم بحرية ممارسة دينه دون تعرضه للأذى، ولهذا لم يظهر النفاق في المرحلة المكية . وكيف يظهر النفاق فيهم و كانت تبعة إعلان الإسلام التعرض لألوان الاضطهاد والعذاب كافة سواء كان من أعلن إسلامه سيد أو مولى أو عبد فلم يسلم أي ممن أعلن إسلامه أو عرف إسلامه من الأذى فالكل هدف للتعذيب والأذى، الكل مستباح طالما أنه مسلم.

بل عندما عاب رسول الله آلهة قومه ذهب وفد من قريش إلى عمه فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه معلنين بكل وضوح رغبتهم في القضاء على الرسول وقتله دون تستر أو خوف. ووصل بقريش الأمر عندما أيقنت أن أبا طالب قد أبى خذلان النبي صلى الله عليه وسلم وإسلامه أن مشوا مرة أخرى إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم،

فنقتله، فإنما رجل برجل، فقال والله لبئس ما تسومونني ! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدا. نعم ذهبوا إلى أبي طالب يطلبون منه صراحة تسليم محمد صلى الله عليه وسلم نفسه ليقتلوه. ولكن فشلت قريش في قتل الرسول صلى الله عليه وسلم أو إيذائه فقد حال أبو طالب بينهم وبين ذلك، لكن الكيد للرسول وللإسلام لم يتوقف، حيث اجتمع الوليد بن المغيرة ونفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر موسم الحج فقال لهم : يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا ؛ قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس، فقلْ وأقمْ لنا رأيا نقول به ؛ قال : بل أنتم فقولوا أسمعْ ؛ قالوا : نقول كاهن ؛ قال : لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ؛ قالوا : فنقول : مجنون ؛ قال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته ؛ قالوا : فنقول : شاعر ؛ قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر ؛ قالوا : فنقول : ساحر ؛ قال : ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ؛ قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا }.

وفي الوقت الذي كانت قريش تخطط للطريقة المناسبة لصد القبائل العربية عن السماع للرسول أو التأثر بكلامه والتعرف على الدين الجديد، كان هناك اتجاه آخر لوقف دعوة الإسلام أو لنقل تجميدها وتزعم عتبة بن ربيعة هذا الاتجاه ألا وهو التفاوض مع الرسول صلى الله عليه وسلم لإقناعه بالتوقف عن الدعوة مقابل ما يريد من متاع الدنيا.

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدا، قال يوما وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون فقالوا : بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه ؛ فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

قال فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد، أسمعْ ؛ قال : يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رَئيًّا تراه لا تستيطع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه، أو كما قال له .

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم، قال : فاسمع مني ؛ قال : أفعل ؛ فقال : {حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ؛ ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك .

رأي عتبة

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به ؛ قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ؛ قال : هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم .

عند ذلك قال أبو جهل : يا معشر قريش، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أُطيق حمله - أو كما قال - فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ؛ قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدا، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرا كما وصف، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بي أن يأكلني .

وكان ذلك جبريل كما قال ابن إسحاق : فذُكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : ذلك جبريل عليه السلام، لو دنا لأخذه .

ولم يتوقف إيذاء قريش سواء النفسي أو الجسدي للنبي على الرجال فقط بل تعرّض الرسول للكثير من الأذى من قِبل زوجة أبو لهب إذ كانت شريكة لزوجها في صَبّ الأذى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإعلان تكذيب دعوته، وقد نزلت في أبي لهب وامرأته سورةُ المسد قال تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ*فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}، وكان من أفعال زوجة أبي لهب أنّها كانت تضع الشوك في الطريق الذي يمشي فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت تضع الأوساخ على باب بيته، وكانت تؤذيه بلسانها، وتُفسد بينه وبين الناس بالنميمة، وعندما علمت أنّ الله توعّدها بالنار هي وزوجها، أتَت إلى الرسول بالحجارة تُريد رميَه بها، إلّا أنّ الله صرفَ نظرها عن الرسول -صلّى الله عليه وسلم.

وبالطبع لم يتوقف الأمر على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بل امتد إلى صحابة رسول الله الذين تعرضوا لأشد أنواع التعذيب نتيجة اتباعهم الإسلام على يد سادة قريش وزعمائها.

فقد لجأ المشركون إلى تعريض أتباع الرسول خاصة من المستضعفين لأشدّ أنواع العذاب، وعرّضوهم للذلّ، والقهر، والاضطهاد حتى يتراجعوا عن الإسلام فتعرّض مصعب بن عمير رضي الله عنه للحرمان من الطعام والشراب على يد والدته إلى أن يَبس جلده، وتعرض الصحابي صهيب الرومي رضي الله عنه لأشد أنواع التنكيل والعذاب إلى أن فقد وعيه، وكان يتم جر الصحابي بلال بن رباح رضي الله عنه من قبل الصبيان بحبل وضع في عنقه إلى أن أثر الحبل في عنقه، وألقيت على صدره صخرة عظيمة في وسط صحراء مكة خلال أشد ساعات الحر وقت الظهيرة، كما أن الصحابي ياسر رضي الله عنه تعرض للعذاب حتى الموت، وقتلت زوجته بطعنة في قُبلها.

وكان أبو جهل إن سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وخزَّاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفلين رأيك، ولنضعن شرفك .

وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك .

وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به، لعنه الله وقبحه.

عذبوا أصحاب رسول الله عذابا شديدا لدرجة إدعاء ترك الإسلام. كما يشير ابن إسحاق بقوله: حدثني حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن

عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟

قال: نعم والله! إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له، اللات والعزى إلاهآن من دون الله .

فيقول: نعم، افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم.

قلت: وفي مثل هذا أنزل الله تعالى:

{مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}

فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الإهانة والعذاب البليغ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الأرت، قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد.

فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث .

قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيك؟

فأنزل الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً}

وعندما زاد المشركون في تعذيب المسلمين ولم يكن هناك من يمنعهم ويحميهم ويرفع الظلم عنهم ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من بلاء، وهو لا يقدر على منعهم، رأى أن يخرج المستضعفون من المسلمين إلى بلد آمن يأمنون فيه على أنفسهم، ودينهم؛ فأشار عليهم أن يتركوا مكة ويتجهوا إلى الحبشة فإن بها ملكا عادلا، فكانت الهجرة إلى الحبشة وترك الوطن والأهل هي الوسيلة المتاحة أمام المسلمين للفرار من العذاب مخافة الفتنة، وكذلك الفرار إلى الله بدينهم فيتمكنوا من إقامة شعائر دينهم بحرية دون خوف.

لكن قريش التي أبدعت وتفننت في تعذيب من آمن داخل مكة، ما كانت لتترك من هاجر فرارا من التعذيب والاضطهاد ليعيش آمنا معافا في بدنه، يتجرع ألم الغربة والبعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقدان الأهل والأحباب. إذ عندما رأت

قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا، أرسلت من يلاحقهم إلى أرض الحبشة، فأرسلت عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة إلى نجاشي الحبشة سعيا منها لرد من هاجر إلى مكة مرة أخرى، وما ذلك إلا لخوف قريش أن تستقر هذه الفئة المستضعفة الفارة بدينها في الحبشة، فيدعو الناس لدينهم فينضم إليهم المزيد من الاتباع ويقوى بهم الدين الجديد، فلا يستطيعوا مواجهته والتغلب عليه بعد ذلك، ولكن خاب سعيهم ورفض النجاشي تسليم المسلمين إليهم.

مؤكد كان هذا الرفض مصيبة كبيرة حلت بقريش وزعمائها وسادتها، إذ لابد من مواجهة هذا الدين الجديد ومنع انتشاره. لكن كيف ذلك وقد امتد إلى ما وراء البحار، وركب بعض أتباعه البحر وتوجهوا إلى النجاشي، ذلك الملك العادل الذي رفض تسليمهم وأمَّنهم في أرضه يعبدون الله وحده لا يخشون أحدا من عباده. ففكروا وكان الشيطان قائدهم، والقرار القضاء على محمد وأتباعه داخل مكة، وبذلك نقضي على هذا الدين.

لكن كيف ؟

وكانت الإجابة، فلنفرض عليهم الحصار والقطيعة حتى يموتوا جوعا وعطشا.

دبرت قريش وكان الشيطان معينا ومرشدا فوضعت الصحيفة التي تحدث عنها ابن إسحاق بقوله: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأن النجاشيَّ قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عُمر قد أسلم، فكان هو وحمزةُ بن عبد المطلب مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلام يفشُو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى المطّلب، على أن لا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا، ولا يبتاعوا منهم ؛ فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علَّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عِكْرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث. فدعا عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فَشُلَّ بعضُ أصابعه.

قال ابن إسحاق ؛ فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شِعْبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب، إلى قريش، فظاهرهم.
وظل الحصار مفروضا على بني هاشم وبني المطلب حتى قام خمسة من سادة قريش بالسعي لنقض هذه الصحيفة الظالمة يتزعمهم هشام بن عمرو.
قال ابن إسحاق : وبنو هاشم وبنو المطلب في منزلهم الذي تعاقدت فيه قريش عليهم في الصحيفة التي كتبوها، ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حُبيب بن نصر بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، فكان هشام لبني هاشم واصلا، وكان ذا شرف في قومه، فكان - فيما بلغني - يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا، قد أوقره طعاما، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشعب عليهم ثم يأتي به قد أوقره بزا، فيفعل به مثل ذلك.

لكن من كان إنسانا ذو قلب ينبض وضمير يقظ، هل يقنع بمحاولة إدخال الطعام فقط ويترك أطفالا ونساءًا وشيوخًا يعانوا الجوع والموت لا لشيء إلا لإيمانهم بالدين الجديد ؟ بالطبع لا، فأصحاب القلوب النقية لا ترضى ذلك، فمشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال : يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم ؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدا ؛ قال : ويحك يا هشام، فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها ؛ قال : قد وجدت رجلا، قال : فمن هو ؟ قال : أنا، قال له زهير : أبغنا رجلا ثالثا .

فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له : يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه، أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سراعا ؛ قال : ويحك، فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ؛ قال : قد وجدت ثانيا ؛ قال : من هو ؟ قال : أنا ؛

فقال : أبغنا ثالثا ؛ قال : قد فعلت ؛ قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية، قال : أبغنا رابعا .

فذهب إلى البختري بن هشام، فقال له نحوا مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يُعين على هذا ؟ قال: نعم؛ قال: من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك ؛ قال: أبغنا خامسا.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟ قال : نعم، ثم سمى له القوم . فاتعدوا خَطْم الحجون ليلا بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك . فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير : أنا أبدؤكم، فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعا؛ ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل: وكان في ناحية المسجد: كذبت والله ولا تشق؛ قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت؛ قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به؛ قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها؛ قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، تُشُوْوِرَ فيه بغير هذا المكان . وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا (باسمك اللهم).

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب: يا عم، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان؛ فقال: أربك أخبرك بهذا ؟ قال: نعم؛ قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذبا دفعت إليكم ابن أخي، فقال

القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزادهم ذلك شرا . فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا.

ومع ذلك لم تتراجع قريش عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاولتها المستمرة في التخلص منه ومن دينه الجديد الذي يخالف دين الآباء ويدعو لعبادة الله الواحد الأحد ويهدد زعامتهم. بل على العكس من ذلك زادت من أذاها للرسول الكريم خاصة بعد وفاة كلا من زوجته خديجة رضي الله عنها وعمه أبو طالب حيث هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلاك خديجة، التي كانت له وزير صدق على الابتلاء يسكن إليها، وبهلاك عمه أبي طالب وكان عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصراً على قومه. وكان ذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين ،وبوفاة أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسله وتبكي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك".

ويقول بين ذلك: "ما نالتني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب".

وبذلك أيقن الرسول أن مكة ليست التربة المناسبة لنمو دعوة التوحيد، وأنه لابد من البحث عن بلد جديد يحتضن دعوته وينصرها، فكان توجهه للطائف.

فخرج صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى، فخرج إليهم وحده.

وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف.

وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وكلمهم لما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه.

فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً أرسله غيرك؟

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم: "إن فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي".

وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وهما فيه.

ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف.

فلما اطمأن قال: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك ".

ثم عاد النبي إلى مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به، خاصة وأن أهل الطائف سربوا الخبر إلى زعماء مكة، فأخذ يبحث عن شخص قوي، يدخل مكة وهو في جواره. فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عدد من زعماء مكة، يطلب منهم الدخول إلى مكة في جوارهم، (إلا أنهم رفضوا جميعا باستثناء واحد منهم هو مطعم بن عدي.)

وبذلك أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم في نظر المشركين، بعد دخوله مكة في جوار مطعم بن عدي، بمنزلة الحليف أو المولى، بعد أن كان ابن القبيلة، فتعرض إلى المزيد من الأذى.

والأهم من ذلك أدراك الرسول صلى الله عليه وسلم أن الطريق مسدود أمام إسلام قومه، وأنه لا أمل منهم في مساعدته لنشر دعوته، فكان لابد من البحث عن بلد جديد يؤمن أهله بنبوته، ويتحملون معه عبأ دعوته، وتبليغها للناس كافة، فبدأ بالخروج في مواسم الحج يعرض نفسه على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبلغ دعوته.

ولما أراد الله إظهار دينه، لقى صلى الله عليه وسلم رهطا من الخزرج وكانوا آخر من التقى بهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ووجد فيهم ضالته، حيث التقى بستة منهم فقبلوا عرضه، لتكون المدينة على وعد شرفها الله به، لتكون مقر ومأوى خاتم المرسلين، ومركز دين التوحيد، ووطن المهاجرين و الأنصار الذين نصروا الرسول وأووه، وعز الله بهم الإسلام.

وبذلك يتضح لنا كيف كان الكفرفي مكة قاسيا عنيفا في مواجهة الإسلام والمسلمين، وكان الإسلام ضعيفا لم تكن له قوة تمنعه أو تمنع اتباعه من استبداد قريش بهم، قريش التي لم تحرص على شيء كحرصها على عبادة الأصنام، ولم تخش شيئا كخشيتها على عبادة الأصنام أن تنتهي، ما يهدد زعامتها وسيادتها كما تظن وتقتنع، قريش التي حاربت الإسلام حقدا وحسدا، قريش التي رأت في الإسلام الخطر الأكبر بل الأوحد لها فكان الإعلان صراحة وبكل وضوح عن عداء الإسلام ومحاربته بكل طريقة ممكنة منذ اللحظة الأولى لميلاده، داخل مكة وخارجها، بالتفاوض أو التعذيب أو حتى الحصار والتجويع للأهل وذوي الأرحام للقضاء عليهم وعلى دعوتهم معهم، سواء أطفالا أو نساءا أو شيوخا، فأصبح المسلم إما مفتون في دينه، أو معذب، أو هارب في البلاد فرارا منهم، وفي ظل هذه الظروف لم يكن هناك أي مجال للنفاق ومداهنة المسلمين، فالهدف القضاء على الإسلام والمسلمين والتخلص منهم بكل طريقة ممكنة، كما أنه لم تكن هناك أي مصلحة ترجى من الإسلام وأهله، للدرجة التي جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك أنه لا مجال لنشر دعوته وقيام دولته داخل مكة، فلا أمل في ذلك، فمكة أرض عبادة الأصنام صماء، أرض بور لن تقبل بذرة الأسلام لن تقبله ولن تنصره، ولا مفر من تركها والخروج منها.

وحتى بعد الهجرة مباشرة لم يظهر النفاق في أهل المدينة، فهم ما يزالون في البدايات وكل القوى تتربص بهم، والجميع ينتظر فناء تلك الفئة المستضعفة وانتهاء الإسلام، بل كانوا يرون ذلك أمرا لابد واقع لا محالة.

إذ عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكان بها الأنصار من (الأوس والخزرج)، وكانوا يعبدون الأصنام كغيرهم من العرب، وكذلك اليهود من أهل الكتاب: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، بنو النضير، بنو قريظة حلفاء الأوس، فمع

وصول النبي صلى الله عليه وسلم أسلم الأنصار من الأوس والخزرج، أما اليهود فلم يسلم منهم إلا القليل ومنهم عبد الله بن سلام.

وفي بداية الأمر لم يمثل الإسلام قوة ذات تأثير بحيث يحسب حسابها أو تهابها القبائل، ولم يكن للمسلمين شوكة سواء داخل المدينة أو خارجها، فلم تكن البيئة جاهزة بعد لنبتة النفاق أن تنمو، بل وادع رسول الله اليهود وكثير من القبائل العربية حول المدينة لتوفير نوع من الاستقرار يسمح ويساعد في بناء الدولة الجديدة وتكوين المجتمع الإسلامي، تلك الدولة التي لا تزال ضعيفة لم تتجاوز مرحلة التأسيس والتكوين.

استمرار تطور الظروف والأحوال وظهور النفاق

ولأن لا شيء يبقى على حاله فمع تبدل الأحوال لصالح الإسلام بعد غزوة بدر الكبرى وإعلاء الله لشريعته وظهور الإسلام والمسلمين على أهل الشرك، هنا يولد النفاق ويجد طريقه للظهور والتغلغل في المجتمع المسلم، إذ أدرك أهل النفاق أنه آن آوان النفاق، فقال عبد الله بن سلول وكان رأسا في المدينة وسيدا للأوس والخزرج قبل الإسلام: هذا أمر قد توجه أيذانا بميلاد فيروس يستحيل التخلص منه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إذ أظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه عدد ممن على طريقته وفكره ومذهبه، وكذلك عدد من أهل الكتاب، وكان ذلك الإعلان الرسمي لنشأة وظهورالنفاق في أهل المدينة ومن بعد ذلك في المجتمعات الإسلامية على اختلاف الأماكن والأزمان.

إذاً لم يكن لهؤلاء المنافقين وجود في المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، أوبعد الهجرة بقليل، حتى كانت غزوة بدر، ونصر الله المؤمنين على الكفارليصبح الإسلام قوة ذات تأثير ونفوذ هنا بدأت ظاهرة النفاق في الظهور وربما يرجع ذلك للأسباب التالية:

أسباب ظهور النفاق

الأول: المصلحة ورغبة المنافقون في حفظ دمائهم وأموالهم ومكانتهم القيادية داخل قبائلهم، فالخوف على مصالحهم قادهم للنفاق، فلن يقبل المسلم المؤمن أن يكون لكافر سلطة عليه، بل ربما يعرض عن التعامل معه مقدما المسلم عليه، خاصة وأن الإسلام كان حريصا منذ لحظاته الأولى على ترسيخ مبدأ الأخوة بين اتباعه مهاجرين وأنصار.

الثاني: الفكر الشيطاني الذي يقوده رغبة بعض المنافقين الحاقدين على الإسلام وأهله، أن يسهل عليهم الكيد للمسلمين ومحاربة الإسلام من داخله دون مقاومة، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وهؤلاء بلا شك يشكلون خطرا عظيما على الإسلام والمسلمين. يدفعهم في ذلك بغض الإسلام وأهله.

الثالث: الطمع بالمنافع الدنيوية، التي يرجو المنافق تحصيلها بالانتساب إلى المسلمين، والتي لا يستطيع تحقيقها إلا من خلال الكذب والخيانة والغدر وادعاء الإسلام.

الرابع: التذبذب والحيرة والشك، الذي حال بينهم وبين رؤية الحق واتباعه.

وبظهور هذه الفئة المنافقة قسم الله الناس في أول سورة في القرآن الكريم إلى ثلاثة فرق: مؤمنين، وكافرين، وبينهم طائفة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ألا وهم المنافقون الذين لا تستطيع أن تحكم عليهم بإيمان أو كفر لأنهم يظهرون خلاف ما يُبطِنون. يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر وهؤلاء هم الذين حذرنا منهم القرآن والسنة، إذ هم الخطر الحقيقي والعدو الفعلي للإسلام، فهمهم تحقيق مصالحهم الخاصة وليست هذه المشكلة، بل المشكلة هي عقيدتهم الفاسدة الراسخة أن تلك المصالح لا تتحقق إلا من خلال طريق واحد وواحد فقط، هو محاربة الدين وهدمه من الداخل وتلك هي الكارثة الحقيقية.

المصالح وظهور النفاق

عندما ظهر الإسلام في مكة وحتى في الفترة الأولى من الهجرة التي كان فيها الإسلام لا يزال ضعيفا وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحاول أن يضع القواعد والأساسات للدين الجديد والتي كانت بمثابة زلزال هدم كل ما كان متعارف عليه من قيم وأعراف، وانتزع المجتمع من جذوره السلبية المتمثلة في الشرك والكفر والفرقة والسلوكيات الجاهلية التي يعارضها الإسلام؛ كالزنا وشرب الخمروواد البنات، فجاء للقضاء عليها وتأسيس مجتمع جديد قوي مؤمن موحد يحرص على مصلحة كل فرد من أفراده ومصلحة المجتمع ككل، مجتمع يقوم على التوحيد وحسن الخلق، فكان الإسلام ثورة على الحياة الجاهلية وكل ما فيها من مساويء دينية وثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية.

أذا هناك افكار جديدة تؤسس لمفاهيم ومصالح جديدة لم يعهدها العرب، تحرص على تحقيق التوازن بين مصالح جميع المسلمين، الجميع له حقوق يجب أن تحفظ ويجب احترامها دون النظر للمكانة الاجتماعية أو الاقتصادية لأي فرد من أفراد هذا المجتمع، فالمعيار الوحيد المكانة الإيمانية ومقدار التقوى فلا فضل لأعرابي على أعجمي إلا بالتقوى، ما يعني أن هناك فئة تتعرض مصالحها للخطرأو هكذا تظن في ظل هذه المباديء، فقد جاء الإسلام لتحقيق مباديء الحق والعدالة والمساواة بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات والجزاء من الله الحسنة بالحسنة والسيئة بالسيئة، وأن الجميع يحاسب على أفعاله دون أعتبار مكانة مالية أو زعامة وسيادة قبلية، وهي مباديء كان من المستحيل قبولها من قبل بعض السادة أصحاب المكانة والسيادة ومن يدور في فلكهم، الذين يرون أنهم فوق الجميع لا يُسئلون عما يفعلوا وهم يَسئلون، فهم فئة لها كل الحقوق، وغيرهم لا حق لهم بل خلقوا لخدمتهم، وكان هذا هو العرف الحاكم.

وبذلك شكلت هذه المفاهيم خطرا على مصالح تلك الفئة التي تتميز غالبا بالظلم والاستبداد والحرص على مصالحها الشخصية ومكانتها السياسية والاقتصادية، فكان الحل الوحيد والمنطقي بالنسبة لها السعي للإطاحة بالدين الجديد والقضاء عليه قبل اكتماله واستقرار أوضاعه بكل طريقة ممكنة سواء بالسخرية والإستهزاء، أوالضغوط الاقتصادية وهذا ما حاول اليهود والمشركون القيام به في أول الأمر.

لكن عندما تفشل كل محاولات إضعاف الدين الجديد والقضاء عليه، ثم تبدأعلامات انتصاره في الظهور سواء من خلال فرض أفكاره وانتشارها، أو زيادة اتباعه والمنتمون إليه، أو انتصاره على أعدائه، هنا تضطر تلك الفئة المعارضة للدين وأفكاره، الحاقده على المسلمين إلى تغيير موقفها وتبني استراتيجية مختلفة لمواجهته والتخلص منه، فلا مفر لديها من التغيير بما يناسب الأوضاع الجديدة لابد لها أن تلجأ للتلون والخداع، أوكما نقول في عاميتنا (تنحني للموجة) حتى لا تنكسر بتعرض مصالحها للخطر كما تظن، فتعلن انضمامها للدين وتأييدها ظاهريا له، في حين تعلن الحرب عليه والمعارضة له ولأتباعه سرا طمعا في القضاء عليه، لتُحقق السيادة التي تطمع فيها والتي لا تتحقق لها مع قوة الدين وثبات المسلمين عليه.

وبذلك بدأ النفاق والمنافقون في الظهور داخل المجتمع الإسلامي. فلم تجد تلك الفئة التي تكره الإسلام وتكره عقيدته سوى النفاق للتعايش بين المسلمين مع المحافظة على مكانتهم وثرواتهم حسب ظنهم وفكرهم المريض الخبيث، وإلا فالإسلام لا يرغم أحدا على الدخول فيه، ولا يجرد أحدا من ماله وثرواته فيكفيه فقط دفع الجزية وليبقى على ما هو عليه، فلا حاجة لمن أسلم لسانه دون قلبه، لا حاجة لمن أسلم لسانه وقلبه أحد من السيف على الإسلام والمسلمين يتمنى القضاء عليهم واختفائهم بكل وسيلة ممكنة، الإسلام لا يريد سوى المسلم الصادق المخلص لدينه، لكن هؤلاء لا يعرفون للصدق طريق ولا للأمانة وجود، فجعلوا لهم وجهين وجه مسلم وهو الوجه الظاهر للتعايش بين الجماعة المسلمة القوية المسيطرة، ووجه آخرخفي لا يراه ولا يعرف عنه شيئا سوى من هم على نفس عقيدتهم وكرههم للإسلام والمسلمين، ما يوضح لماذا هم أخطر أعداء الإسلام، فهم يظهرون أنفسهم على أنهم مسلمون ينصرون الإسلام ويدافعون عنه، وهم في الحقيقة أخطر أدوات إضعافه وتدميره والقضاء عليه، إذ لا يحطاط المسلمون منهم ولا يكونوا على استعداد لمواجهاتهم، فهم يعاملونهم على أنهم إخوة منهم يحبونهم ولا يخافونهم أو يخافوا غدرهم، بل يشاركوهم أخبارهم وأسرارهم ويطلبون العون منهم مطمئنين لهم دون حذر، وتلك هي المصيبة، فكما يقول المثل: لص الدار لا ترقبه الأنظار.

وضع المسلمون أول لبنة للدولة الإسلامية في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبدأت قوة هذه الدولة الوليدة في الظهورو الازدياد بعد إنتصار المسلمين في غزوة بدر، فلم يعد المسلمون تلك الفئة المستضعفة التي يعاني انصارها

التعذيب والاضطهاد، بل قويت شوكتهم وحققوا أول انتصارا لهم على من أذاقوهم سوء العذاب. فشعر زعماء المدينة أن هذا الانتصار يعرض مصالحهم لخطرمؤكد، وخاصة اليهود منهم فقد كانوا يتمتعون بمكانة ثقافية واقتصادية ودينية بل كانوا يبشرون ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما بُعث أنكروا نبوته خوفا من زوال رئاستهم وأموالهم مع علمهم بحقيقة نبوته {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}.

كما كان في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول وأنصاره الذين أعدوا العدة لتنصيبه ملكا للأوس والخزرج، ثم كانت الهجرة النبوية واندفعت الجماهير من الأوس والخزرج للدخول في الدين الجديد، وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيم دعوته حتى عم الإسلام أهل المدينة من الأوس والخزرج.

فلم يجد المنافقون مفرا من الإستسلام والتظاهر بالإسلام، خوفا على مكانتهم الاقتصادية والإجتماعية، خاصة وأن قوة العربي تتمثل في قبيلته، والقبائل أسلمت للدين الجديد، فكان قرار هؤلاء المنافقين إظهار الإسلام وإخفاء الكفرمع التخطيط سرا للقضاءعلى الإسلام، فبعد انتصار المسلمين في غزوة بدرالتي كانت نقطة فاصلة في نجاح وقوة الدعوة الإسلامية، أدرك المنافقون أن هذه الدعوة الوليدة أصبح لها من الأنصار والقوة ما يساعدهاعلى تحقيق النصر والغلبة على أعدائها، ليس هذا وحسب بل وجدوا أن هناك أرباح وغنائم ومكاسب سيتم حصادها، فلاح أمامهم شبح الطمع أن يكون لهم نصيبًا في هذه المكاسب، إذا فلنحقق المكاسب ونتجنب المواجهة مع المسلمين ونحاربهم من الداخل. وربما كان من الأسباب التي دعمت المنافقين في قرارهم التظاهر بالإسلام سماحة الإسلام وقوانينه القائمة على المساواة بين المسلمين جميعا، فمن يسلم في أي لحظة يأخذ مكانه في المجتمع المسلم بوصفه واحدا من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم دون تمييز بينهم. فكل مسلم أيًّا كان تاريخ إسلامه له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات فأغرت هذه السمة المنافقين على التظاهر بالإسلام، وإن كانوا أشد المعادين له، والحاقدين عليه بل وأكثر العاملين على هدمه، ولكن إذا كان من الصعب أن يتحقق سعيهم لهدم الدين من خارجه، إذا فليعملوا على هدمه من داخله سواء عن طريق بث روح الفُرقة والنزاع بين المسلمين، أوإثارة الفتن ونشر الشائعات والأكاذيب، أو إثارة الشبهات والتشكيك في الدين وثوابته، وهكذا ظهر بين العرب سلوكا جديداً لم تعرفه من قبل ألا وهو

النفاق.سلوك شيطاني لم يعهده العربي، فالعربي الذي يتفاخر بالشجاعة والمروءة والشهامة والكرم والصدق وغيرها من صفات عربية أصيلة لا يمكن أن يجبن ويظهر عكس ما يبطن، ولكنها قوة الإسلام وعزته التي جعلها الله تعالى في قلوب العباد تثبيتا لدينه الحق ونصرة لنبيه، فلم يجد الحاقدين على الدين وسيلة لهدمه سوى النفاق والتواري خلف ادعاء الإسلام ،سلوك ينسجم تماما مع سلوك الشياطين.كأن المنافق والشيطان وجهان لعملة واحدة، ولما لا ؟ وكلاهما يكيد للمؤمنين للنيل منهم ومن قوة إيمانهم.

لكن من هو مؤسس حركة النفاق؟

من هو شيطان الإنس مبتدع النفاق وأول من سنه وعمل به؟

منذ اللحظة الأولى لحركة النفاق وخروجها إلى الوجود ظهرت ملتفة حول شخصية زعيمها وداعمة له، فلم تخرج من خلال فكرة تؤيدها وتدعو لها مجموعة تعتنقها وتؤمن بها، وهكذا شأن كل حركة جديدة على مر التاريخ ومنها حركة النفاق، دائما وأبدا تكون ملتفة وداعمة لأشخاص وليس أفكار، أشخاص لهم أغراض ومصالح خاصة بهم، فهي حركة غالبا ما تكون مأجورة في زماننا هذا، لتحقق مصالح الأعداء والتي تنسجم مع مصالحهم الشخصية، فهي حركة لمجموعة من مرضى القلوب {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا}، وهو مرض مزمن لا يرجى شفائه بل زيادته، فقلوب أتباعها مليئة كرها وحقدا وحسدا على الإسلام والمسلمين، وهو كره قابل للزيادة مع كل خير يصيب أهل الإسلام.

وكان عبد الله بن أبي المؤسس الأول لحركة النفاق في المدينة، وكان كرهه وحقده على الرسول صلى الله عليه وسلم واضحا في العديد من المواقف منذ هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل تظاهره بالإسلام، ومن هذه المواقف ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أسامة بن زيد أن نبي الله ﷺ ركب على حمارعلى إكاف على قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه؛ يعود سعد بن عبادة قبل وقعة بدر فسار حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول وفي المجلس أخلاط من المسلمين ومن المشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم

قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجلسنا، إرجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: "بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك" فاستب المسلمون، والمشركون، واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم، حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: أي سعد، ألم تسمع ما يقول أبو حباب (ابن سلول) ؟ قال كذا وكذا ... قال سعد: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد اصطلح لأهل هذه البحيرة (المدينة) أن يتوجوه، يعني يملكوه فيعصبوه بالعصابة، فلما رد الله تبارك وتعالى ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فلذلك فعل بك ما رأيت، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه الحادثة كما تقرر كتب التاريخ والمغازي قد وقعت قبل معركة بدر، وذلك في بداية الهجرة، فكان ابن سلول أول منافق يعرفه الإسلام، وأول من خط وأنشأ طريق النفاق ومهده للسالكين فيه، وكان أنصاره من أهل المدينة، فلم يكن بين المنافقين أحد من المهاجرين، فلم يكن أحد يُكره المهاجرين على الهجرة وترك ديارهم وأموالهم وأهليهم، فكل من هاجر كانت هجرته بدافع من الإيمان ونصرة الإسلام، إذ مجرد إعلانه شراء الإسلام ودخوله فيه يقتضي بيع كل ما يملك في مكة والتخلي عنه بما في ذلك عائلته وذوي رحمه.

وهنا يظهر السؤال:

من هوعبدالله بن أبي بن سلول؟

هوعبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، زعيم قبيلة الخزرج، كان يجيد فن الخطابة، ويتصف بقوة الشخصية وكان كذلك من أثرياء المدينة، إضافة إلى مكانته السياسية والاجتماعية فقد روى ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة: (وسيد أهلها عبد الله بن أبي بن سلول ... لا يختلف في شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين، حتى جاء الإسلام

وغيره. بل وصلت مكانته إلى درجة دفعت قومه لأن ينظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم.)

كما كانت علاقته وطيدة بأكبر القبائل اليهودية، وهي قبيلة بني قينقاع التي كانت تدعم ابن سلول اقتصاديا من خلال سياسة المصالح المشتركة بينهما حتى يتم ترشيحه من قبل الأوس والخزرج ملكا لهم، لما كان يتمتع به ابن سلول من مكانة اقتصادية واجتماعية وسياسية، إضافة لما يتمتع به من سمات شخصية تؤهله للزعامة كان من أهمها.

شخصيته القيادية

فكما ذكر ابن الأثير فقد أودت الحرب الأخيرة بين الأوس والخزرج يوم بُعاث بقتل زعيمي القبيلتين، عمر بن النعمان زعيم الخزرج، وحضير بن سماك زعيم الأوس، في هذه الأثناء كان عبد الله بن أبي بن سلول يتابع ويراقب هذه الحرب التي لم تبق ولم تذرعن كثب، يراقبها ويتابع أحداثها، بعيون فاحصة تتطلع لمستقبل يمكنها من السيادة، وتحسب حساباتها بدقة لكيفية جمع كلا القبيلتين على شخصية قيادية متزنة لم تلطخ يدها بدماء أي من أفراد القبيلتين. وبتلك العقلية القيادية الفذة التي تجيد قراءة الواقع، والتنبؤ بالمستقبل مع الطمع في تحقيق السيادة، لم يدخل ابن سلول في هذه الحرب فلم ينحاز لأي من الطرفين طمعا في السيادة، وأن يكون هو القائد المنقذ لهم من الهلاك، وكان له ما تمنى وخطط له.

فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وفقدت القبيلتان قياداتهما، ودب الضعف بين أفراد كل قبيلة لعدم وجود قيادات بديلة تمسك بزمام قيادة القبيلة، فأخذت الأنظار تتوجه إلى ذلك الرجل صاحب الشرف والنسب، ذي العقل الحليم والحكيم، الذي بعد بنفسه عن تلك الحروب التي لا تبقي ولا تذر ولم تلطخ يده بالدماء، والذي كان ينادي إلى الاتحاد وعدم الفرقة بين أبناء العمومة، مما جعل أغلبية القبيلتين تتفق على التحالف معا وترشيح ابن سلول، وتقدمه على غيره لقيادة هذا التحالف الجديد، وتسلمه زمام الأمور.

ونظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، وذلك لما له من صفات قيادية عاينوها وتأثروا بها، فقد كان ابن سلول ذو شخصية مهيبة، من الناحية الشكلية، والجمالية، والبدنية، كما قال تعالى في وصفه للمنافقين: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ}، ومن الناحية الخطابية والكلامية حيث أنه كان ذو منطق وفصاحة في كلامه، وله القدرة على التأثير على أفراد القبيلتين أوس وخزرج كما وصف الله تعالى: {وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ}، ومع جمال هذه الصفات ومع أن من يملك هذه الخصال يكون له قوة وتأثير في النفوس، لكن القرآن وبعبقرية وصفية شديدة يوضح أنه لا قيمة لهذه الصفات والخصال إن لم يكن صاحبها صادق فيما يقوله، ويستخدمها فيما يحب الخالق سبحانه وإلا فإنهم كما يقول تعالى: {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ} كأنهم خشب مسندة إلى حائط لا خير فيها، فهي ليست شجر مثمر يُستفاد منه، بل خشب مسندة لا خير فيها ولا نفع، فهم صور بلا أجسام وأشباح بلا عقول لا خير فيهم ولا نفع منهم.

ومثل هذه الشخصية القيادية والتي تشعر بأن لها تميزا عن غيرها، وأنها تستحق الزعامة بل أن الزعامة خلقت لها، عندما تفقد ما تطمح إليه من زعامة وتفقد مكانتها بين انصارها وليس لها من الأيمان ما يعوضها فقد الزعامة والمصالح الشخصية تشكل خطرا عظيما على مجتمعها.

ويغوص القرآن في نفس هذه الشخصية ليكشف لنا خباياها وكيف تصبح مصدرا للخطرعلى المسلمين ؟، إذ أن هذه الشخصية القيادية عندما تفقد ما تطمح إليه من زعامة وتفقد مكانتها بين انصارها يؤدي إلى إصابتها بأحد أخطر الأمراض المتعلقة بالشخصية، وهو مرض النفاق الذي يقودهم للتحالف مع كل شيطان كاره للدين، فقال عنهم: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ *يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ *فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، وقال أيضا عنهم: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} فهم يظهرون الإيمان في حين يبطنون الكفر حقدا وحسدا.

لكن ما هي الأحداث التي دفعت ابن سلول ليصاب بالنفاق؟

كانت البداية لقاء (العقبة الأولى) إذ التقى الرسول صلى الله عليه وسلم ومجموعة من أهل يثرب جميعهم من الخزرج قبيلة ابن سلول، وهم: (أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث، رافع بن مالك، قطبة بن عامر، عقبة بن عامر، جابر بن عبدالله). وفي هذا اللقاء اطلع أهل يثرب على تعاليم هذا الدين الجديد، وأهدافه، ولم يكن ابن سلول زعيم أهل يثرب قد دعي لهذا اللقاء، بل لم يُخبر بنتائجه وما تم الاتفاق عليه. وكان هذا هو اللقاء الأول.

ثم بعد عام من هذه المقابلة التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل يثرب، جاء إلى موسم الحج في السنة الثانية عشرة من البعثة، اثنا عشر رجلا(عشرة من الخزرج واثنان من الأوس) وكانوا جميعا من الذين أسلموا، وفيهم الستة الذين التقاهم النبي صلى الله عليه وسلم في العام الماضي، فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة وبايعوه بيعة (العقبة الأولى) أو بيعة النساء.

وكانت الظروف التي تعيشها المدينة من أهم الأسباب التي جعلت أهل المدينة يقبلون على الدين الجديد ويدعمونه ويقبلون دعوة الإسلام ويتمسكوا بها، ذلك أن الحروب الطاحنة بين الأوس والخزرج قد أنهكت قواهم، ما جعلهم يقبلون الدعوة الجديدة بترحيب شديد، فربما تكون سبباً لأنهاء الحروب بينهم، وتوحيد صفوفهم. يظهر ذلك في قول الوفد الأول الذي قابل الرسول صلى الله عليه وسلم في العقبة: "إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ". كما أن الأوس والخزرج كانوا على اطلاع بأمر الرسالات السماوية، بل كانوا على علم بقرب ظهور نبي كما أخبرهم اليهود، الذين كانوا يهددونهم بنبي قد أظل زمانه، ويزعمون أنهم سيتبعونه، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم. لذا بمجرد أن عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه عليهم، قال بعضهم لبعض: "تعلمون والله يا قوم إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه ".

وقد روى البخاري في صحيحه نص هذه البيعة وبنودها، فعن عبادة بن الصامت . رضي الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(بايعوني على أن لا تشركوا

بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه)، قال عبادة: فبايعناه على ذلك.

وبنود هذه البيعة هي التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها النساء فيما بعد، ومن ثم عرفت ببيعة النساء. ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه ليعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فكان يسميه أهل المدينة (المقرئ).

أقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة في المدينة، يدعو الناس إلى الإسلام، واستمر يدعو أهلها إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور المدينة إلا ودخلها الإسلام، فكان مصعب بن عمير رضي الله عنه أول سفير للإسلام وداعيا للحق في المدينة المنورة، حافظا لما نزل من آيات القرآن الكريم، كما كان يتصف بحسن الخُلق والحكمة، والرفق مع قوة الإيمان، والحماسة للإسلام وكسب أتباع وأنصار له، لذلك استطاع خلال أشهر قليلة أن ينشر الإسلام في بيوت المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وقد أسلم بإسلامهما خَلق كثير من قومهم.

وكان مصعب رضي الله عنه أترف وأنعم شاب في مكة، وأحسن شبابها حُلة وبهاء، فلما دخل الإسلام ترك كل هذه الرفاهية باع الدنيا وطمع في الآخرة، فانطلق في طريق الدعوة الإسلامية من وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثابتا على دينه صابرا محتسبا، حتى قضى نحبه شهيدا في غزوة أحد، وليس له ما يلبسه إلا ثوب واحد، أرادوا أن يكفنوه به، فكانوا إذا غطوا به رأسه ظهرت رجلاه، وإذا غطوا به رجليه خرج رأسه ضاربا بذلك أوضح الأمثال للفرق بين المؤمن والمنافق، فالمؤمن سلعته الجنة يبيع دنياه ليكسب جنته، أما المنافق يطمع في الدنيا من أجلها يبيع كل شيء ليحصل عليها فلا رب يرجو رضاه ولا جنة يطمع في سكناها.

رجع مصعب رضي الله عنه إلى مكة، قبيل موسم الحج من العام الثالث عشر للبعثة، ونقل الصورة الكاملة التي انتهت إليها أوضاع المسلمين في المدينة، وكيف انتشرالإسلام بين الأوس والخزرج، فأصبحوا جاهزين لبيعة جديدة أكبر من سابقتها، قادرة على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم والدفاع عن الإسلام وانتقال دعوته للمدينة ونشرها للعالم أجمع.

بيعة العقبة الثانية

انتشر الإسلام في المدينة وتغلغل في نفوس وقلوب من أسلم من أهلها فكانت المركز لميلاد الدولة الإسلامية، كما جاء في مسند الإمام أحمد في حديث جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما –وفيه:

أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لبث عشر سنين يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم: مجنة، وعكاظ، ومنازلهم بمنى من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة ؟ فلا يوجد أحداً يؤويه ولا ينصره، حتى أن الرجل يرحل صاحبه من مصر أو اليمن فيأتيه قومه أو ذو رحمه فيقولون: احذر فتى قريش لا يفتننك ! يمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله – عز وجل -، يشيرون إليه بأصابعهم، حتى بعثنا الله – عز وجل – له من يثرب، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام.

ثم بعثنا الله – عز وجل – وائتمرنا واجتمعنا سبعين رجلاً منا فقلنا: حتى متى نذر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يطوف في جبال مكة ويخاف، فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا شعب العقبة فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين، حتى توافينا عنده فقلنا:

يا رسول الله على ما نبايعك فقال بايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكم الجنة .

فقمنا نبايعه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغر السبعين رجلا إلا أنا فقال: رويداً يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وإن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب، كافة فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله – عز وجل –، قلنا: أمط يدك يا أسعد بن زرارة، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها، فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة. "

وروى كذلك كعب بن مالك عن البيعة فقال: ثم قد واعدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – العقبة أوسط أيام التشريق، ونحن سبعون رجلاً للبيعة، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام أبو جابر، وإنه لعلى شركه، فأخذناه فقلنا يا أبا جابر: والله إنا لنرغب بك أن تموت على ما أنت عليه فتكون لهذه النار غدا حطبا، وإن الله قد بعث رسولاً يأمر بتوحيده وعبادته، وقد أسلم رجال من قومك، وقد واعدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للبيعة، فأسلم وطهر ثيابه وحضرها معنا فكان نقيباً .

فلما كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بمنى أول الليل مع قومنا فلما استثقل الناس في النوم تسللنا من قريش تسلل القطا، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة، فأتانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعمه العباس ليس معه غيره، أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، فكان أول متكلم فقال:

" يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحيازإليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه فهو في عز ومنعة من قومه وبلده ".

فقلنا قد سمعنا ما قلت، تكلم يا رسول الله، فتكلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، ودعا إلى الله – عزوجل -، وتلا القرآن، ورغب في الإسلام، فأجبناه بالإيمان به والتصديق له، وقلنا له: يا رسول الله خذ لربك ولنفسك، فقال: إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبنائكم ونسائكم" .

فأجابه البراء بن معرور فقال: نعم والذي بعثك بالحق مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر.

فعرض في الحديث، أبو الهيثم بن التيهان، فقال يا رسول الله إن بيننا وبين أقوام حبالاً، وانا قاطعوها، فهل عسيت إن الله أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: "بل الدم الدم، والهدم الهدم أنا منكم، وأنتم مني: أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم" .

فقال له البراء بن معرور: ابسط يدك يا رسول الله نبايعك، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: "أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً "، ليقوموا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

فكان نقيب بني النجار: أسعد بن زرارة

وكان نقيب بني سلمة: البراء بن معرور، وعبدالله بن عمرو بن حرام

وكان نقيب بني ساعدة: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو

وكان نقيب بني زريق: رافع بن مالك بن العجلان
وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج: عبدالله بن رواحة، وسعد بن الربيع
وكان نقيب القوافل بني عوف بن الخزرج: عبادة بن الصامت، وفي الأوس من بني عبد الأشهل: أسيد بن حضير، وأبو الهيثم بن التيهان وكان نقيب بني عمرو بن عوف: أسعد خيثمة

قال فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا، فصرخ الشيطان على العقبة بأبعد – والله – صوت ما سمعته قط: فقال يا أهل الجباجب هل لكم في مذمم ما يقول محمد والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: "هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب أما والله لأفرغن لك، ارفضوا إلى رحالكم".

فقال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بني سالم: يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: "إنا لم نؤمر بذلك، ارفضوا إلى رحالكم "، فرجعنا إلى رحالنا فاضطجعنا على فرشنا".

لا شك أن بيعة العقبة الثانية تمت في ظروف صعبة، فقد كانت تمثل تهديدا خطيرا لقوى الشرك المحيطة بالإسلام والمتربصة به للقضاء عليه، لذلك كان لابد من التخطيط الجيد مع الدقة في التنفيذ حتى يتم اللقاء سرا دون أن يعلم أو يشعر به أحد، ومن ثم البيعة دون أن تتعرض لمشاكل تعوقها بعيدا عن أعين المشركين، وهنا تظهر عبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب الرؤية الشاملة لكل ما يحيط بالإسلام والمسلمين من مخاطر وكيفية التغلب عليها والتعامل معها، نعم سيقابل وفد يثرب لكن لابد من مراعاة مجموعة من الأمور لأتمام البيعة بنجاح:

1- لابد أن يتم اللقاء في سرية تامة لذلك على أعضاء الوفد التحرك بسرية تامة في وقت لا يكون فيه حركة، حتى لا ينكشف الأمر، وكان وفد المبايعة سبعين رجلاً وامرأتين، من بين وفد جاء من المدينة يقترب من خمسمائة، لذلك كان موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق بعد ثلث الليل، فيخرجون وباقي الوفد المشرك غارقا في النوم، بعيداً عن أية أحتمالية لرؤيتهم من باقي أفراد الوفد المصاحب لهم.

2- الخروج المنظم إلى موعد ومكان الاجتماع، مستخفين رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين للحفاظ على الهدوء وضمان عدم استيقاظ أحد من باقي أفراد وفد المدينة المشرك.

3. لم يعلم ميعاد ومكان اللقاء سوى العباس بن عبد المطلب الذي جاء مع النبي صلى الله عليه وسلم ليتوثق له، وعلي بن أبي طالب الذي كان عيناً للمسلمين على فم الشعب، وأبو بكر الذي كان على فم الطريق وهو الآخر عيناً للمسلمين، أما من عداهم من المسلمين وغيرهم فلم يكن يعلم عن الأمر شيئاً، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وفد المدينة أن لا يرفعوا الصوت وأن لا يطيلوا في الكلام، حذراً أن يسمع صوتهم أحد من المشركين أو المرافقين لهم.

4- اختار النبي صلى الله عليه وسلم الليلة الأخيرة من ليالي الحج، وهي ليلة الثالث عشر من ذي الحجة، حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي وهو يوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم إذا انكشف أمر البيعة.

5- ونرى منذ اللحظات الأولى لنشأة الدولة الإسلامية حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على ترسيخ مبدأ الشورى ومشاركة المسلمين في اتخاذ القرارات الخاصة بهم، فلم يعين النقباء إنما ترك اختيارهم إلى أفراد الوفد أنفسهم.

6- تم اختيارالنقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج. وأصبح النقباء منذ تلك اللحظة هم المسؤلون عن الدعوة في المدينة.

وبذلك نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى بوفد يثرب في (بيعة العقبة الأولى) حيث قابل اثنا عشر رجلا أغلبهم من قبيلة الخزرج، وناقش معهم أمر الدعوة وتأسيس الدولة الإسلامية.

ولم يدع ابن سلول لهذا اللقاء، ولم يخبر بما تم الاتفاق عليه، لكن مما لا شك فيه أن هناك معلومات وصلته عن هذا اللقاء فشخصية مثله وزعيم من زعماء الخزرج لابد أن تكون له اتصالات على مستوى يتناسب وزعامته تخبره بما يخفى عليه من أحداث، إلا أنه لم يهتم بأمر هذه البيعة لما يحظى به من تأييد داخل قبيلته واقتراب تتويجه ملكا عليهم، مما جعله يرى أن الأمر ليس خطيرا على مصالحه ومكانته الشخصية وأن زعامته بعيدة عن أي تهديد، فلم الاهتمام بالأمر ؟.

ثم كانت (بيعة العقبة الثانية) ورغم وجود ابن سلول بمنى كرئيس لبعثة حجاج أهل يثرب إلا أنه لم يدع لهذا اللقاء أيضا، وتم اللقاء دون دعوته أو أخباره.

رغم أن هدف هذا اللقاء كان لمناقشة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة، لقيام الدولة الإسلامية بها وبسط سيادته عليها وقد ظهر ذلك جليا في قول العباس

بن عبادة: (هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس).

وبعد أن تمت البيعة واقترب اللقاء من نهايته طلب الرسول صلى الله عليه وسلم انتخاب قيادات تمثل كافة أهل يثرب وكانت هذه هي البداية الفعلية لسحب البساط من تحت أقدام ابن سلول وطائفته وتقليص سلطته، فقد تم اختيار الأثني عشر زعيما من أهل يثرب ليكونوا هم القادة المسؤلون عن إدارة شؤن المسلمين وتنظيم أمورهم فيها حتى مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يعني زوال زعامة ابن سلول. ثم بدأت المعلومات تتسرب عن اللقاء وأنه بدأ التخطيط الفعلي لإقامة دولة إسلامية في المدينة المنورة، فلما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة شديدة فما أن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة لأهل يثرب، ليقدم رفضه واعتراضه لما تم التوصل إليه في بيعة العقبة الثانية من تأييد ودعم للرسول صلى الله عليه وسلم.

فقال الوفد المكي: "يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا ... فقام ابن سلول، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا على بمثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني".

إذن تأكدت المعلومات لابن سلول الزعيم والمرشح أن يكون ملكا على أهل يثرب عن اللقاءات التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم من طرف وبين أهل يثرب من طرف أخر. فأيقن أن هناك تخطيطا وخطة وضعت دون أبلاغه وأن هناك إجراءات تتخذ وتنفذ دون أخباره، هنا بدأ الحقد يتولد ويتسلل إلى قلب ابن سلول الذي أدرك خطورة هذه اللقاءات على مكانته القيادية والاجتماعية والاقتصادية في الفترة القادمة وأن زعامته أصبحت مهددة، وحلمه أن يكون ملك قد يموت قبل أن يولد، فلابد إذن من أخذ الحذر والاحتياط لابد من الاستعداد لمواجهة القرارات التي تم الاتفاق عليها في بيعتا العقبة الأولى والثانية بطريقة تحفظ مصالحه الاقتصادية، وترعى مكانتة السياسية والاجتماعية حتى يستطيع القضاء عليها، ظنا منه أنه يمكن احتوائها والسيطرة عليها، لكن هيهات أن يحدث ذلك.

إذ عندما انتقلت قيادة الدولة الإسلامية إلى المدينة المنورة مقر الدولة الإسلامية الجديدة، وجد ابن سلول أن أهل المدينة وقادتها قد انحازوا للرسول صلى الله عليه

وسلم واختاروه قائدا لهم بدلا عنه، وأدرك أنه فقد مكانته كزعيم، وضاع حلمه في أن يصبح ملكا فلا أمل في زعامة أو ملك، هنا تحول الحقد إلى نفاق وبدأ ابن سلول يعاني من مرضه الذي لم تعرفه العرب من قبل، ذلك الوباء الذي يصيب القلب فيمرضه ويقضي على كل خير فيه.

هنا بدأت بذور النفاق تعرف طريقها إلى قلب ابن سلول وإن كانت لا تزال في مرحلة النمو فلم يكتمل نموها بعد، فهي تحتاج أن تُروى بمزيد من الأحداث أو حدث عظيم يثبت جذورها ويساعدها على اكتمال وسرعة نموها فكانت غزوة بدر هي ذلك الحدث الذي قاد بذور النفاق إلى مراحل نموها الأخيرة.

ومن خلال ذلك يمكن القول إن ظهور ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي تعود في الغالب إلى انتصار الإسلام وتثبيت دعائمه بالمدينة، التي أصبحت تحكم بحكم النبوة معلنة انتصار دعوة الإسلام وانتهاء عبادة الأوثان، وانتهاء تعظيم العباد وتعظيم رب العباد، ثم توجهها لنشر سيطرتها خارج المدينة بعد إحكام السيطرةعليها. فعجز أهل الشرك الذين تمسكوا بشركهم من أهل المدينة عن إعلان عداوتهم ومعارضتهم صراحة للإسلام، واضطروا إلى ادعاء الإسلام ظاهريا حرصا على مصالحهم الشخصية.

وهنا يتجلى إعجاز القرآن الذي حذر من هذا المرض ليس فقط بمجرد ظهوره، ولكن محددا أعراضه وصفات أصحابه بدقة شديدة رغم حداثته في البيئة العربية، مؤكدا على خطورته على المجتمع المسلم ليس فقط في عصر النبوة، بل في كل العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وكان ذلك على لسان النبي الأمي اليتيم أبا وأما، ومع ذلك كان على علم بالنفاق ونفسية المنافقين علم العالم المجرب العارف والمطلع على دقائق الأمور (فما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)، فعلمه يأتيه من السماء من العليم الخبير. ولعل من المعلوم لدى أهل العلم والخبرة أن الشخصية القيادية عندما تضطر إلى إظهار قبولها التخلي عن القيادة ومنصب السيادة تحت ضغوط تفوق قدراتها يؤدي بها ذلك إلى النفاق، حيث تكره الإسلام الذي حرمها الزعامة، وتسعى جاهدة للقضاء عليه سرا أنتقاما لضياع حلمها، في حين تدعي حب الإسلام ونصرته علانية وتلك هي المشكلة.

وبذلك يمكن تحديد وتعريف من هو المنافق شرعا بأنه:

تعريف المنافق في الشرع

هوالذي يظهر غير ما يبطن. فإن كان الذي يخفيه التكذيب بأصول الإيمان فهو المنافق الخالص وحكمه في الآخرة حكم الكافر وقد يزيد عليه في العذاب لخداعه المؤمنين بما يظهره لهم من الإسلام قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}. وإن كان الذي يخفيه غير الكفر بالله وكتابه ورسوله وإنما هو شيء من المعصية لله، فهوالذي فيه شعبة أو أكثر من شعب النفاق. فالمنافق: هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام.

والنفاق كذلك يطلق على من ارتكب خصلة من خصال النفاق كالكذب، أو إخلاف الوعد وهذا هو النفاق العملي، وصاحبه عاص ولكن لا يخلد في النار.

قال ابن منظور: والنفاق اسم من الاسماء الشرعية التي وضعها الشرع، لم تكن معروفة بمعناها الاصطلاحي قبل الإسلام، وهو الذي يستر كفره ويظهر إسلامه.

وبذلك يتضح أن النفاق والمنافقين ظهورهم كان قديما قدم الدولة الإسلامية ونشأتها بالمدينة المنورة، وأنهم ومنذ بداية ظهورهم خطرا عظيما على الإسلام والمسلمين، تلازم ونشأة الدولة الإسلامية واشتداد عودها بالمدينة، فمنذ أن اضطر رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول إلى مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم والدخول في الإسلام بعد غزوة بدر، وتيقنه أن دين الإسلام قد ظهر وعلا ولا يستطيع معاداته كما كان يفعل من قبل، فقرر أن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وأضمر هو ومن كان على نفس نهجه وفكره وكرهه للإسلام حرب الإسلام وأهله سرا فلا سبيل أمامهم لمعاداة الإسلام ومواجهته بشكل علني وصريح، شكلت هذه الفئة تهديدا عظيما للإسلام والمسلمين، ما جعل القرآن الكريم وبمجرد نشأتها وبداية محاربتها الإسلام ورسوله يؤكد في العديد من آياته وسوره على خطورتها، بل ويشير إلى أنهم الخطر الأعظم على الإسلام والمسلمين {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ}؛ كما حرص القرآن أن يحدد أوصافهم، ويفضح أفعالهم، والتحذير منهم، بل اختصهم بسورة المنافقين، تلتها سورة براءة حيث أشارت كل سورة منهما إلى العديد من أوصافهم وأفعالهم وأقوالهم، إضافة إلى العديد من الآيات الدائرة في القرأن والتي تتحدث عن المنافقين؛ وما ذلك إلا لعظم خطرهم على الإسلام والمسلمين.

ليس أدل على ذلك سعيهم ومنذ اللحظة الأولى لنشأتهم وظهورهم للصد عن دين الله تعالى والإعراض عن شريعته، والاعتراض على أحكامه، وتحريض المسلمين على التمرد عليها خاصة ضعيفي الإيمان منهم.

كما تخبرنا الآيات القرآنية فنقرأ قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا}.

وقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}.

فما أعظم القرآن الذي أشار بعبقرية شديدة لتلك الصفة التي ظهرت لصيقة بالمنافقين، وتعد من أخطر صفاتهم منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وحتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي صد المسلمين عن الدين وشرائعه وأحكامه، وإن كان منافقي اليوم أشد خطرا من منافقي الأمس، فقد أصبحوا أكثر خبثا وأوسع حيلة ومكرا في الصد عن دين الله، يساعدهم في ذلك العديد من الوسائل الحديثة والمساعدة في نشر أفكارهم ونفاقهم بين المسلمين جميعا، تحت ستار تجديد الدين تارة، والتحضر تارة، والتنوير تارة أخرى وغيرها من أكاذيب فالقائمة طويلة، وشياطين الأنس حيلهم لا تنتهي، بل يشعر أمامها شياطين الجن بالعجز والغباء وقلة الحيلة، يتسائلون متعجبين كيف لم يستطيعوا الوصول إلى مثل تلك الحيل ؟!!!.

نماذج من أفعال المنافقين في زمن النبوة

إذ قد يكون من المفيد عرض أفعال المنافقون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما في ذلك من عظة وعبرة ومعرفة كيفية التعامل معهم، فإذا كانت هذه أفعالهم في حياة الرسول ووجوده بينهم، فكيف الحال بعد وفاته وغيابه عن عنهم؟! لا شك أصبحوا أعظم خطرا وأكثر تهديدا.

غزوة بدر

وتسمّى بغزوة الفرقان أو غزوة بدر الكبرى، إذ بعد هجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة المنورة بدأ بإنشاء الدولة الإسلامية وتحقيق الاستقرار داخلها فعقد معاهدات مع بعض القبائل التي اعتنقت اليهودية والمحيطة بالمدينة المنورة

وكذلك اليهود المقيمين بها، إذ كانوا هم أصحاب القوة والسيطرة عليها، وكان الأوس والخزرج يعرفون قوة اليهود وسيطرتهم سواء الاقتصادية أوالدينية في ذلك الوقت، مما جعلهم يؤيدون هذه المعاهدات التي أقامها النبي صلى الله عليه وسلم فهي تتماشى مع طبيعة المرحلة التي تمر بها الدولة الإسلامية في تلك الفترة، فالدولة مازالت في بداية تأسيسها ولا تزال ضعيفة، والهدف الأساسي لها تحقيق الاستقرار لتثبيت قواعد الدين الجديد، فلا وقت ولا مجال للقتال والحروب، والمعاهدات أفضل وسيلة لضمان الاستقرار، فعقد معهم معاهدة تضمن لهم حقوقهم وتعرفهم بواجباتهم داخل الدولة الإسلامية التي يعيشون في رحابها، فأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لم، واشترط عليهم، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى للتعايش ومسالمة غير المسلمين، فعقد معاهدة مع اليهود في المدينة بعد الهجرة مباشرة، تضمنت عدة بنود.

بنود معاهدة المدينة الخاصة باليهود:

1- أن يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم.

2- على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

3- وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

4- وأن بينهم النُّصح والنصيحة، والبرَّ دون الإثم .

5- لا يأثم امرؤٌ بحليفه.

6- النصر للمظلوم .

7- اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

8- يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

9- ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

10- لا تجار قريش ولا من نصرها.

11- وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

12- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

وبذلك سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تحقيق الاستقرار في المدينة ذلك أن اليهود هم أقوى وأقرب قوة للمسلمين في المدينة، وكانوا قد قرروا عداوة المسلمين منذ اللحظة الأولى لهجرة النبي، إلا أنهم لم يكونوا قد أظهروا أية عداوة أو خصومة بعد.

وكانت هذه الوثيقة مع اليهود بمثابة أول وثيقة توقعها دولة المسلمين مع طائفة أخرى من غير المسلمين هم اليهود.

لكن هل يلتزم اليهود بما عاهدوا الرسول عليه؟

اليهود كانت علاقتهم بقريش والقبائل المجاورة قوية، وكان القتال لا يزال ممنوعاً على المسلمين، ثم نزل قوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} فتغير الوضع من كف وإعراض عن المشركين إلى السماح بقتالهم، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلا من الشام، فندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلُكُموها . فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا .

وكان أبو سفيان بما عرف عنه من مكر ودهاء يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفا على أمر الناس . حتى أصاب خبرا من بعض الركبان: أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فكان لابد من الحذر وطلب النجدة . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها في أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو مسرعا إلى مكة .

أما رسول الله فقد أخذ طريقه من المدينة إلى مكة يريد بدرا، وبعث بسبس بن الجهني، حليف بني ساعدة، وعدي بن أبي الزغباء الجهني، حليف بني النجار، إلى بدر يتحسسان له أخبار أبا سفيان بن حرب فلابد من معلومات وافية لتقييم الأمر.

فأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم؛ فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش؛ فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا، ودعا له به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشيروا علي أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم .

فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال: أجل؛ قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُق في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله . فسُر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ونشَّطه ذلك؛ ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

لكن لابد من معلومات دقيقة وشاملة عن العدو، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه، إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر له فأصابوا رواية لقريش فيها أسلم، غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار، غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء .

فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما . فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما . وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتيه، ثم سلم، وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش ؟ قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم القوم ؟ قالا: كثير؛ قال: ما عدتهم ؟ قالا: لا ندري؛ قال: كم ينحرون كل يوم ؟ قالا: يوما تسعا، ويوما عشرا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: القوم فيما بين التسع مئة والألف . ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، و زمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه، ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود.

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس، فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

أقبل أبو سفيان بن حرب، حتى تقدم العير حذرا، حتى ورد الماء؛ فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحدا ؟ فقال: ما رأيت أحدا أنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا.

فأتى أبو سفيان مُناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففتَّه، فإذا فيه النوى؛ فقال: هذه والله علائف يثرب. فرجع إلى أصحابه سريعا، فضرب وجه عيره عن الطريق، فساحل بها، وترك بدرا بيسار، وانطلق عائدا إلى مكة.

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا؛ فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا - وكان بدر موسما من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا.

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يُبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

ثم أن الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نُغَوِّر ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أشرت بالرأي .

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضا على القَليب. ثم أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً، ودعا له بخير. ثم بُني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش، فكان فيه.

وارتحلت قريش حين أصبحت، فأقبلت، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة.

ولما اطمأن القوم، بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا: احزروا لنا أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاث مائة رجل، يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد ؟ قال: فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئا، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئا، ولكن قد رأيت، يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم، حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم، هو الخوف قذفه الله في قلب عمير، جند من جنود الله التي أعطاها لنبيه .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، أتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال: وما ذاك يا حكيم ؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك

عمرو بن الحضرمي؛ قال: قد فعلت، أنت علي بذلك، إنما هو حليفي، فعلي عقله وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية ، يعني أبا جهل بن هشام.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا، فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا و خلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعا له من جرابها، فهو يهنئها - يهيئها - فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، للذي قال؛ فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمدا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه. ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ: واعمراه، واعمراه، فحميت الحرب، وحَقِب الناس، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، فكبر أبو جهل وحقده منعه أن يستجيب لصوت العقل، وقادهم إلى هلاكهم كما سنرى.

خرج الأسود بن عبدالأسد المخزومي، وكان رجلا شرسا سيئ الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه؛ فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دما نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم: عوف، ومعوذ، ابنا الحارث ورجل آخر، يقال: هو عبدالله بن رواحة؛ فقالوا: من أنتم ؟ فقالوا: رهط من الأنصار؛ قالوا: ما لنا بكم من حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم ؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي؛ قالوا: نعم، أكفاء كرام. فبارز عبيدة، وكان أسن القوم، عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة؛ وبارز علي الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله؛ وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله؛ واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه؛ وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه.

ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش، معه أبو بكر الصديق، يدير المعركة من مركز قيادته، إذ أمر أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل، وأخذ يعدل الصفوف، ثم رجع إلى العريش فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصديق لا يفارقه، فأخذ يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، وأبو بكر يقول: يا نبي الله: بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك . فكانت البشارة، إذ قال صلى الله عليه وسلم: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع. وأثناء ذلك رمى مهجع، مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل، فكان أول قتيل من المسلمين؛ ثم رمى حارثة بن سراقة، أحد بني عدي بن النجار، وهو يشرب من الحوض، بسهم فأصاب نحره، فقتل.

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم، وقال: والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشا بها، ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نضحهم بها، وأمر أصحابه، فقال: شدوا؛ فكانت الهزيمة، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم. فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش، الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، متوشح السيف، في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخافون عليه كَرَّة العدو، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لكأنك يا

سعد تكره ما يصنع القوم؛ قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك احب إلي من استبقاء الرجال.

وقاتلت الملائكة مع المسلمين وتعددت الروايات التي تؤكد ذلك ومنها ما ذكره ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة، فننتهب مع من ينتهب، قال: فبينا نحن في الجبل، إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلا يقول: أقدم حيزوم؛ فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه، فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم تماسكت.

وذكر كذلك أبي أسيد مالك بن ربيعة، وكان شهد بدرا، قال، بعد أن ذهب بصره: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى.

وعن أبي داود المازني، وكان شهد بدرا، قال: إني لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري.

وعن علي بن أبي طالب قال: العمائم: تيجان العرب، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضا وقد أرخوها على ظهورهم، إلا جبريل فإنه كانت عليه عمامة صفراء. فالله يؤيد بنصره من يشاء، إذا أراد شيئا إنما يقول له كن فيكون، وكانت بدر معركة حاسمة وفاصلة بين الحق والباطل، فكان لزاما أن تؤيد من الله.

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه، أمر بالقتلى أن يطرحوا في القليب، فطرحوا فيه، فلما ألقاهم في القليب، وقف عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا. فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتنادي قوما قد جيَّفوا ؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني . خاطبهم رسول الله صلى الله معلنا انتصار الحق على الباطل في أولى المعارك الفاصلة بينهما، فها هي رموز الباطل جميعها بين قتيل وأسير، ها هي القلة المؤمنة تنتصر على الكثرة المشركة، ها هي دولة الإسلام تعلن تثبيت قواعدها بالمدينة.بشارة وفرحة لابد أن تنقل لسائر المسلمين، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن رواحة بشيرا إلى أهل

العالية، بما فتح الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة.

كان عدد المؤمنين المشاركين في تلك الغزوة 313 وكان الكافرون قرابة الألف، هناك فرق واضح في العدد والعدة، فقد كانت قريش تتفوق كثيرا من الناحية المادية على جيش المسلمين، وفي مثل هذا الموقف لا يستطيع النفاق أن يصمت ويراقب دون أن يظهر ما في قلبه من حقد وكره ورغبة في القضاء على الإسلام أو إضعاف قوته، فالظروف مناسبة تماما ليطل علينا النفاق بوجهه العفن، فنجد المنافقون الذين لم تؤمن قلوبهم بالله، ولا بقدرته التي يؤيد الله بها عباده المؤمنين، وينصرهم بها على أعدائه، ويغير بها قوانين البشر التي تشير إلى رجحان كفة الكافرين، لذا لابد أن يقول المنافقون مقالة تعبرعن حقيقتهم المنكرة للإيمان، وطبيعتهم الحاقدة على الإسلام وأتباعه فقالوا: (غر هؤلاء دينهم)

قالوا ذلك قبل أن تنتصر القلة المؤمنة، ظنا منهم بأن النصر سيكون للكافرين، وأن الهزيمة والهلكة لابد أن تكون من نصيب المؤمنين، وفقا للمعايير والأسباب الدنيوية التي يعرفها البشر، لكن كان حكم رب البشر أن نصرهم نصرا عظيما مخالفا ظن المنافقين وحكمهم فقد ظنوا أن النصر سيكون لقريش المتفوقة عددا وعدة والهلكة ستكون حتما للقلة المستضعفة من المؤمنين.

وكان هذا النصر صدمة لهم فهم توقعوا الهزيمة وأراد الله عز وجل شيئا آخر مختلفا تماما أراد النصر الساحق، ما أربك حساباتهم القائمة على القضاء على الإسلام والتخلص من أنصاره فهذا ما ينتظرونه... الهزيمة، فكان النصر ما جعلهم يدركون أن هذا الدين مؤيد بقوة خفية لا قبل لهم بمواجهتها، إذ كيف تنتصرهذه القلة المستضعفة مثل هذا الانتصار، خاصة بعد ما سمعوه من روايات عن الملائكة التي حاربت مع المسلمين، فأظهروا الإسلام وابطنوا الكفر ليسهل عليهم محاربة الإسلام وأهله، فكانت بداية بزوغ نجم النفاق وغرس بذوره لينبت زرعه الشيطاني ذو المظهر الحسن، والباطن العفن الحاقد، متحينا الفرص للتخلص من الإسلام وأنصاره والقضاء عليهم فتتوالى مواقفهم الطامحة إلى القضاء على الإسلام دون توقف، فكانت غزوة بني قينقاع محطة النفاق التالية، والكاشفة عن حقيقة التزام اليهود بعهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

غزوة بني قينقاع

وقعت في جنوب المدينة المنورة في شوال سنة 2 هـ واستمرت خمسة عشر يوما حاصر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بني قينقاع.

وكانت تستهدف تأمين المدينة من أعداء الداخل حتى لا يتحالفوا مع المشركين ضد المسلمين، وحتى لا يهددوا الدعوة الجديدة، وقد قاد الرسول صلى الله عليه وسلم جيش المسلمين في الغزوة بنفسه، وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وكان سبب الغزوة أن حاول بنو قينقاع المعروفين بكراهية الإسلام، الحاق الأذى بالمسلمين والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، من خلال بث الأخبار الكاذبة، والتعاون مع المشركين، والتضييق الاقتصادي على المؤمنين الذين لهم ارتباط مالي معهم نظرا لما يضمرونه من حقد وكره للإسلام والمسلمين، وكان ذلك قبل غزوة بدر رغم وجود معاهدة عقدوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم وقعت غزوة بدر فزادتهم كرها وحقدا على الإسلام والمسلمين ونقضوا عهدهم مع الرسول وكانوا أول من نقض عهده مع الرسول من اليهود لذلك جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق بني قينقاع وقال: (يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله تعالى إليكم، فكان ردهم أن قالوا: يا محمد إنك ترى أنا قومك -أي: تظننا أنا مثل قومك-، ولا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) وفي لفظ آخر (لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا). ما يدل على قوتهم، خاصة أنهم كانوا صاغة وحدادين وصناع أواني فتوفرت لديهم أدوات الحرب، إضافة لعدد المقاتلين فيهم ما أغراهم لقول ذلك، فقد كانوا أشجع اليهود وأكثرهم أموالا وأشدهم بغيا، فأنزل الله تعالى {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}.

توالت المواقف من يهود بني قينقاع، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقابل ذلك بالصبر، ثم كانت الواقعة التي كانت سببا في اتخاذ الرسول صلى الله عليه وسلم قرار إجلاء بني قينقاع عن المدينة، وهو ما حدث لتلك المرأة المسلمة زوجة أحد المسلمين الأنصار، والتي جاءت إلى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ لأجل حلي

لها، فجاء رجل منهم فخل درعها إلى ظهرها، وهي لا تشعر، فلما قامت بدت عورتها، فضحكوا منها، فقام إليه رجل من المسلمين فقتله، فنقضوا بذلك عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحصنوا في حصونهم، فكان لابد من موقف حاسم ومعاقبتهم على فعلهم ذاك، فترك يهود بني قينقاع دون ردع ومحاسبة على أفعالهم لن يجعلهم يزيدوا من تطاولهم على الإسلام والمسلمين فحسب، بل سيغري غيرهم التطاول على المسلمين، فغزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، وكان الله بجوار نبيه وأتباعه دون شك، فقذف في قلوبهم الرعب، مما جعلهم ينزلوا على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي رأى أنه لابد من قتلهم.

وهنا يطل علينا النفاق برأسه مؤيدا أعداء الدين، فبني قينقاع حلفاء الخزرج وعلى وجه أكثر دقة حلفاء ابن سلول، فقام عبد الله بن أبي بن سلول فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأبطأ عليه الرد فقال: أحسن في موالي، فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم، فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فغضب رسول الله، وقال: ويحك أرسلني. فقال: لا أرسلك حتى تحسن إلى موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله لأخشى الدوائر.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هم لك، خلوهم لعنهم الله حرصا من النبي على عدم فرقة المسلمين والحفاظ على وحدة المجتمع المسلم.

ارتفع صوت المنفاق لكن لماذا؟ هل لدعم الحق والدفاع عن أعراض المسلمين ؟.مؤكد لا، ولكن لتأييد اليهود والدفاع عنهم وعن أموالهم وممتلكاتهم فهم أهلهم وناصريهم، هم من يطمئنون لهم وبينهم، فلابد من الوقوف معهم ودعمهم والعمل على حمايتهم، ما يفسر حرص ابن سلول ليس فقط التشفع لهم من القتل عند النبي صلى الله عليه وسلم، بل الجهاد لنصرتهم وحمايتهم بكل طريقة ممكنة، قائلا "يا محمد، أحسن في موالي" لم يرددها مرة واحدة بل كررها مرارا، وقد أسماهم مواليه، بل وصل الأمر أن وضع يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلف، ليقول له النبي صلى الله عليه وسلم:(ويحك أرسلني، وغضب حتى احمر وجهه)، لكن هل غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضايقه أويعنيه ؟، هل يهتم لغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

طبعا لا، لقد وصل به الأمر أن يعلن أنه يخشى أن تدور الدوائر على المدينة فلا يجد من يحميه، فهو لا يرى المسلمين أهل، وقوة داعمة توفر الأمن والحماية له،

بل يرى في اليهود الأهل والقوة التي تمنعه من الناس، هم حلفائه وناصريه ومن يلجأ إليهم في الشدائد. ونتيجة لإلحاح ابن سلول ورغبة الرسول في وحدة الصف المسلم استجاب له وتركهم دون ان يؤذيهم مع نفيهم خارج المدينة، وتم تنفيذ الأمر واتجهوا شمالا إلى الشام حيث أقاموا بأذرعات بالشام، تاركين أموالهم وأسلحتهم وأدوات صياغتهم، بعد ثلاثة ليال مهلة، وكان محمد بن مسلمة هو من تولى جمع الغنائم منهم.

وهنا نجد النفاق يخطو ليس خطوة واحدة بل خطوات في معاداة الإسلام، ليَظهر دون خجل أو حياء مساندا اليهود الأعداء الصرحاء فقد أعلنوا عداوتهم صراحة للرسول صلى الله عليه وسلم، وولائهم لليهود.

وهنا يجب القول أنه كما سارع المنافقون والنفاق متمثلا في ابن سلول لتأييد ودعم اليهود، سارع أهل الإيمان في التبرأ منهم ومناصرة الرسول والمسلمين حيث تبرأعبادة بن الصامت من يهود بني قينقاع بعد أن كان حليفا لهم، تبرأ منهم ومن حلفهم بعد غدرهم بالمسلمين. بل وأشرف بنفسه على عملية إجلاء اليهود بتكليف من الرسول صلى الله عليه وسلم وانتهت أحداث الغزوة بإجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة لغدرهم بالمسلمين ونقضهم العهد معهم، وقيل أن اليهود لم يلبثوا إلا قليلا حتى هلكوا بمنفاهم، ويبقى النفاق وأهله ليطل علينا بموقف أشد عداوة وأكثر أذى للمسلمين على نحو ما نجد في غزة أحد أو الفاضحة.

غزوة أحد

بدأ النفاق في الظهور لكنه كان لا يزال ضعيفا خفيا، والأصل في التعامل مع الناس في الإسلام على الظاهر من أقوالهم وأفعالهم، دون البحث عما يبطنون في أنفسهم، فكثير من الناس دخل الإسلام أولاً، ولم يكن مقتنعًا به الاقتناع الكامل ثم مع معايشة المسلمين والتعرف على الدين وملامسة القرآن أوتار قلبه حسن إسلامه وأصبح من المؤمنين المخلصين.

ولهذا كلما ظهر خطأ من بعض المنافقين صبرعليه الرسول صلى الله عليه وسلم وتحمله ولم يكن ذلك ضعفا في شخص الرسول أو الدعوة الجديدة، ولكن لابد أن

يحين الوقت الذي تطمئن فيه نفوس هؤلاء أو بعضهم وتسمو أخلاقهم، فالزمن يداوي كثير من الأمراض ويعالج أحيانا أمراض بعض الأنفس المريضة.

فوجب الصبر والحلم في مرحلة دقيقة من مراحل الدعوة الإسلامية على من كان حديث عهد بالإسلام، ولمًا يتمكن الإيمان من قلبه، فالبعض ربما يستقر إيمانه ويثبت مع مرور الوقت فيتذوق حلاوة الإيمان تماشيا مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، فقلبه لا يزال حي لم يتمكن المرض منه يحتاج فقط الوقت ليشفى، ولكن البعض الآخر يطمس الله على قلبه فلا يعي ولا يفهم غير عداء الإسلام، وما عدا ذلك فقلبه مختوم عليه بختم لا يسمح بمرور أي خير أو فائدة ولا يعرف سوى كره الإسلام ومحاربته بكل وسيلة ممكنة، ولذا لابد من الصبر فالمواقف ستكشف وتظهر مع الوقت من آمن وصلح إيمانه، ومن نافق وأخفى نفاقه وحقده على الإسلام والمسلمين، خاصة وأن اتخاذ موقف صريح من المنافقين يؤدي لإضعاف الدعوة الجديدة إذ قد يثير بقايا العصبية الجاهلية بين المسلمين. وكان من هذه المواقف الكاشفة أو لنقل الفاضحة غزوة أحد فقد اتفقت قريش على إعداد جيش للثأر من المسلمين، إذ ازداد المشركون غيظا وحقدا على الإسلام والمسلمين بعد هزيمتهم في غزوة بدر التي قتل فيها آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم، فاتفقوا على أن يقوموا بحرب ضد المسلمين تشفي غيظ قلوبهم وتروي غليل حقدهم، فأخذوا في الاستعداد لخوض هذه المعركة فكان أول ما فعلوه أنهم احتجزوا العير التي نجا بها أبو سفيان والتي كانت سبباً لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت لهم فيها أموال إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً فأجابوهم لذلك فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}.

فخرجت قريش بحدها وجدها وحديدها وأحابيشها معهم النساء في الهوادج التماس الحفيظة للرجال وألا يفروا، يدفعها الغيظ والحقد مما وقع لهم في بدر من الهزيمة والقهر، ولكن عيون المسلمين لم تكن بعيدة عن تحركات قريش وجيشها، فأرسل العباس بن عبد المطلب إلى النبي صلى الله عليه وسلم رسالة يخبره فيها بتحرك الجيش نحو المدينة، فوصلت الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسجد قباء، فأمر أبي بن كعب أن يقرئها، ثم انطلق صلى الله عليه وسلم إلى قادة المهاجرين والأنصار ليعلمهم بالأمر، فاستعد المسلمون لهذا التحرك الطارئ

استعدادا عظيماً وأعلنوا حالة الاستنفار، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم الرجال أن يحملوا سلاحهم حتى وهم في الصلاة.

وأما جيش المشركين فقد واصل زحفه نحو المدينة حتى بلغ الأبواء ثم اقترب من المدينة حتى نزل قريباً من جبل أحد، وكان ذلك في يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

علم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع بالمسلمين ليشاورهم ويضع معهم خطة المواجهة، وأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه رأى رؤيا في المنام فقال:

رأيت بقراً يذبح ورأيت في ذُباب سيفي ثلماً ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فتأول صلى الله عليه وسلم البقر يذبح بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة، وكان رأيه صلى الله عليه وسلم أن يقيموا في المدينة ويدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا عليهم قاتلوهم، ووافق على هذا الرأي كبار الصحابة، لكن جماعة من الصحابة ممن فاتهم الخروج يوم بدر أشاروا على النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج، وألحوا عليه في ذلك حتى قال قائلهم يا رسول الله كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله، فقد ساقه إلينا، أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا. أما ابن سلول فكان رأيه موافقا لرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يرى البقاء في المدينة وعدم الخروج منها فقال: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه. فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تنازل عن رأيه مراعاة لهؤلاء، واستقر الرأي على الخروج من المدينة وملاقاة العدو في مكان تعسكره، ثم صلى عليه الصلاة والسلام بالناس صلاة الجمعة فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد وحثهم على التهيؤ للقاء عدوهم ففرح الناس بذلك، ثم دخل صلى الله عليه وسلم بيته ومعه صاحباه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه لباس الحرب فتدجج صلى الله عليه وسلم ولبس درعاً فوق درع وتقلد سيفه ثم خرج على الناس، وكانوا ينتظرون خروجه، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير أكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج، فردوا الأمر إليه وارجعوا إلى رأيه في البقاء في المدينة، فندموا جميعاً على ما صنعوا. فلما خرج صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله لعلنا أكرهناك، ما كان لنا أن نخالفك

فإن أحببت أن تمكث بالمدينة فأفعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل.

قسم صلى الله عليه وسلم جيشه إلى ثلاثة كتائب وكان عددهم ألف مقاتل، ورد صلى الله عليه وسلم من استصغره ولم يره مطيقاً للقتال مثل عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وأبو سعيد الخدري وغيرهم من صغار الصحابة، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ليصلي بمن بقي في المدينة، ثم بات صلى الله عليه وسلم بالجيش بين أحد والمدينة بمقربة من جيش العدو يراهم ويرونه، وقبل طلوع الفجر بقليل والكل يستعد للمعركة وهزيمة عدوهم، كشف النفاق عن نفسه وأهدافه دون خوف أو خجل، فقام زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وقال أطاعهم وعصاني لا ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس فانسحب وسحب معه ثلاثمائة مقاتل، انسحب من ميدان المعركة عائدا إلى المدينة قائلا: رأينا التحصن بالمدينة، ونحن ناصروه في مدينتنا، وقد خالفنا، وأشرت عليه بالرأي فأبى إلا طواعية الغلمان، وهو بتلك الكلمات يبرر سبب انسحابه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خالف رأيه بعدم الخروج من المدينة. كان من الممكن ألا يخرج من المدينة للقتال أصلاً هو ومن معه، وأن يحتج أنهم خالفوا رأيه، وأنه يرى البقاء وعدم الخروج هو الأصوب لذلك لن يخرج معهم، ولكنه قرَّر الخروج مع جيش المسلمين ثم الانسحاب هل تعرفون السبب؟

أراد إيقاع الهزيمة بالمسلمين، إذ خرج وهو مضمرا الانسحاب بعد ذلك حتى يُوهن جيش المسلمين فهم قلة مقارنة بجيش العدو، فكيف بانسحاب ثلثهم من ساحة القتال، انسحبوا وقدموا الدعم لقريش وإن لم يقاتلوا معها يكفي تعزيز الجانب المعنوي لها، فثلث الجيش المسلم ينسحب من قلب المعركة مع ما يحدثه ذلك من فوضى وبلبلة بين صفوف المسلمين، نعم انسحب ابن سلول رأس النفاق لينسحب ويتراجع معه عددا كبيرا من الجيش بلغ الثلث، انخدعوا برأيه وبكلامه ولم لا؟ فهو بالنسبة لهم مسلم مؤمن وأحد سادتهم وذوي الرأي فيهم أقنعهم بكلامه (ما يوضح خطورة النفاق والمنافقين فهم يفعلون ما لا يستطيع العدو الصريح فعله من إضعاف وتدمير للمجتمع المسلم)، وكان لهذا الحادث الأثر الكبير في نفوس باقي الجيش، كما كان دليلا قوياعلى وجود قوًى خفية تعمل في الظلام لمحاربة مجتمع المدينة، نعم لم يكن هذا العدد الكبير المنسحب كله من المنافقين لابد منهم

مؤمنين، ولكن أتضح أن النفاق ذو تأثير كبير في نفوس المسلمين ويستطيع تحقيق أهداف أعداء الدين دون قتال بل دون جهد يذكر، ثلث الجيش الإسلامي فُقِدَ، ثلث الجيش اختفى فقط بكلمات ممن يظن أنه من أهل الدين، ولنا أن نتخيل كم من وقت وجهد وأسلحة وقتلى كان يحتاج إليها المشركون لتحقيق هذه النتيجة.وبعد هذا الانسحاب قام صلى الله عليه وسلم في بقية الجيش وهم سبعمائة مقاتل فأعاد ترتيب صفوفهم، واختار مجموعة من الرماة الماهرين بلغ عددهم خمسين راميا، وأعطى قيادتهم لعبد الله بن جبير، وأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يثبتوا في أماكنهم وأن لا يخرجوا منها، وقال لجبير انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك، وأكد صلى الله عليه وسلم على الرماة الأمر أن احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا أماكنكم حتى أرسل إليكم، وكان هدفه صلى الله عليه وسلم أن يؤمن الثغرة الوحيدة التي يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا منها إلى صفوف المسلمين ويقوموا بالالتفاف عليهم من خلالها، وهي خطة تظهر العقلية الحربية الفذة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل من الرماة دروعا تحمي ظهور المقاتلين، وجعل صلى الله عليه وسلم على الميمنة المنذر بن عمرو وعلى الميسرة الزبير بن العوام يسانده المقداد بن الأسود وحرض أصحابه على القتال وحثهم على المصابرة والجلد، وعمل على نشر روح الحماسة فيهم، إذ جرد سيفاً باتراً فنادى فيهم من يأخذ هذا السيف بحقه فقام إليه عمر وعلي والزبير بن العوام رضي الله عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة "سماك بن خراش" فقال وما حقه يا رسول الله فقال أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني، فعصب أبو دجانة على رأسه عصابة حمراء كان إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت، ثم خرج يتبختر في مشيته بين الصفين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن.

وقبل نشوب المعركة حاول المشركون إيقاع الفرقة والنزاع بين المسلمين، حيث أرسلوا رسولاً إلى الأنصار أهل المدينة يقولون لهم خلوا بيننا وبين عمنا فننصرف عنكم، فلا حاجة لنا في قتالكم، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل حيث رد عليهم الأنصار رداً عنيفاً، واسمعوا رسول قريش ما يكره. ثم تدانت الفئتان فكان أول قتيل حامل لواء المشركين طلحة العبدري، كان من أشجع فرسان قريش يسميه المسلمون

كبش الكتيبة. خرج طلحة العبدري وهو راكب على جمله يدعوا إلى المبارزة فأحجم الناس عن مبارزته لفرط شجاعته، فتقدم إليه الزبير بن العوام فوثب عليه وثبة الليث وقفز إليه قفزة الأسد حتى صار معه على جمله، فألقاه على الجمل فأقتحم به الأرض فذبحه بالسيف فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم هذا المصرع كبر وكبر المسلمون وراءه، وأثنى على الزبير وقال في حقه: إن لكل نبي حواريا وحواري الزبير.

فحمل لواء المشركين بعد طلحة العبدري أخوه عثمان العبدري، فتقدم إليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه حتى وصلت إلى سرته فبانت رئته فمات. فحمل اللواء بعده أخوه أبو سعد العبدري، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم في حنجرته فمات لحينه. فحمل اللواء بعده أخوه مسافع العبدري فرماه عاصم بن ثابت بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب العبدري فانقض عليه الزبير فقاتله حتى قتله. فحمل اللواء بعده أخوه الجلاس العبدري فطعنه طلحة بن عبد الله طعنة قضت عليه.

ستة أشخاص من بيت واحد قتلوا جميعاً حول لواء المشركين ثم حمله أربعة من بعدهم فقتلوا، وسقط لواء المشركين على الأرض وبقي ساقطاً لم يحمله أحد، واشتد القتال، وفي هذه الأثناء وعند اشتداد القتال رمى وحشي بن حرب، وكان عبداً حبشياً مملوكاً لجبير بن مطعم قال له جبير إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق، فخرج مع الجيش ليس له هدف إلا قتل حمزة، فتتبعه حتى رماه بسهم قتل رضي الله عنه على إثره. ورغم هذه الخسارة الفادحة بمقتل عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسد الله وسيد الشهداء، ظل المسلمون مسيطرين على المعركة وقاتلوا قتالاً عنيفا لدرجة أنهم أرعبوا المشركين وحطموا أملهم في تحقيق أية نصر.

وبينما كان هذا حال الجيش الإسلامي، منتصرا نصراً ساحقا، وقعت من الرماة غلطة حولت النصر إلى هزيمة وخسائر فادحة، حيث تركوا أماكنهم وخرجوا من الجبل حينما رأوا المسلمين يجمعون غنائم العدو، فقال بعضهم لبعض الغنيمة الغنيمة غرتهم الدنيا، فذكرهم قائدهم عبد الله بن جبير بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم الخروج، وقال لهم أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولكن معظمهم لم يهتم لتذكيره، فانكشفت ظهور المسلمين ولم يعد يحمي ظهورهم أحد، فأنتهز الفرصة خالد بن الوليد، ودار من خلف الجبل فأباد من تبقى من الرماة على ظهر الجبل، ثم انقض المشركون على المسلمين، فأحاطوا بهم من

الأمام والخلف، ووقع المسلمون بين عدوهم وانقلبت رحى الحرب ضدهم، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته قائلاً "إلي عباد الله". ثم حوصر صلى الله عليه وسلم ورُمي بالحجارة فشج وجهه حتى سال الدم من وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم وأصيبت رباعيته وجرحت شفته وضرب على وجنته حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجهه صلى الله عليه وسلم فمسح الدم من على وجهه وهو يقول كيف يفلح قوماً شجوا وجه نبيهم فأنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُون}.

وقتل ابن قمئة مصعب بن عمير رضي الله عنه وظن أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصاح في الناس أن محمداً قد قتل، فوقع في صفوف المسلمين ارتباك شديد وطار صواب طائفة منهم، وتوقف من توقف عن القتال، فمر أنس بن النضر فقال لهم ما تنتظرون، فقالوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ثم تقدم، فلقيه سعد بن معاذ فقال إلى أين يا أبا عمر، فقال أنس واهاً لريح الجنة يا سعد إني لأجد ريح الجنة من دون أحد ثم مضى فقاتل المشركين حتى قتل فما عرف من بين الشهداء حتى عرفته أخته بعد نهاية المعركة وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم.

وبمثل هذه الشجاعة عادت إلى المسلمين حماستهم القتالية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم فأخذوا أسلحتهم وتركوا القعود والاستسلام وهاجموا المشركين من جديد، خاصة و أنه قد بلغهم أن خبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم خبر كاذب لا صحة له فزادهم ذلك قوة إلى قوتهم فأنزل الله: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيم}.

انتهت غزوة أحد باستشهاد سبعين من الصحابة رضي الله عنهم، إضافةً إلى جرح عددٍ منهم، وكان الفوز في المعركة حليف المشركين بعد أن خالف المسلمون أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، وعاد النبي صلى الله عليه وسلم من الغزوة إلى المدينة المنورة، لكن المدينة قبل أحد ليست المدينة بعدها، فكانت أحد من أهم عوامل كشف المنافقين وفضحهم، فقد تزعزعت مكانة زعماء النفاق إذ أُهين رأس المنافقين

عبد الله بن سلول في المسجد بعد أن وقف متظاهرا بتأييده للنبي، فقد وصلت جرأة عبد الله بن سلول أنه بعد الانسحاب من أحد، ومقتل سبعين من المسلمين وجرح آخرين أن وقف يوم الجمعة التالي لمعركة أحد كما كان يفعل كل جمعة ليمتدح الرسول صلى الله عليه وسلم حيث، كان يقوم إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: أيّها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا ثم يجلس.

حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس يا عدو الله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت! فخرج يتخطى رقاب الناس، فلقيه رجل من الأنصار فقال: ويلَك ارجع يستغفر لك رسول الله قال: والله ما أبغي أن يستغفر لي.

أخذ المسلمون بثيابه وأجلسوه كي لا يسمعوا منه، فقد بدأت نبتة النفاق في الظهور ليشعر بها ويلحظها مجتمع المدينة بأكمله، فما كان من ابن سلول إلا أن قام من فوره غاضبا وخرج من المسجد ولم يصل الجمعة معهم، وبعد أن كان الناس إما كافر أو مسلم فقط، أصبح هناك نوع ثالث مسلم ظاهرا كافر باطنا يعلمه المسلمون.

كانت تلك الحادثة أول رد فعل لمواجهة النفاق والمنافقين والتضيق عليهم والصد لهم فقد كانت الرسالة واضحة لابن سلول أجلس لا نريد أن نسمع منك، ولو كان مديحا لخير البشر، فقط أجلس واسمع ولا تتحدث بكلمة واحدة يكفيك الجلوس بيننا، وكان في ذلك أيضا رسالة للناس أن انصرفوا عن المنافقين ولا تهتموا ولا تسمعوا منهم شيئا، كانت الرسالة واضحة خاصة أن الذين أقعدوه هم أبناء قبيلته الذين كانت منهم أغلبية شهداء يوم أحد، وأصبح المسلمون ينظرون إلى ابن سلول وأتباعه نظرة ريبة وشك في تصرفاته، وبذلك أصبح نفاقه معلوما عند الجميع وإبعاده عن كل القرارات الهامة أمرا طبيعيا، دون أن يفتح المجال لأتباعه أن يجعلوا منه بطلا مضطهدا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أن يثير إبعاده تعصب أفراد قبيلته ومن ثم إثارة العصبية القبلية بين الأنصار أوس وخزرج، فقد أدرك الأنصار خطورته على الإسلام والمسلمين وضرورة إبعاده عن أي قرار.

غزوة بني النضير

عاش يهود المدينة في حالة من الخوف والرعب طيلة الفترة التي ما بين مقتل كعب بن الأشرف الذي كان يؤذي النبي وصحابته بأشعاره وكان يحرض المشركين عليهم ظنا منه أنه آمن في حصنه فأرسل له رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة محمد بن مسلمة لقتله فقتلوه وليس هذا وحسب بل أبلغهم صلوات الله عليه أن يقتلوا كل من يظفروا به من اليهود فخاف سادتهم أن يصيبهم ما أصاب كعب، ومعركة أحد، ولكن نتيجة المعركة والهزيمة التي حلت بالمسلمين فيها، أحيت في نفوس المشركين والمنافقين الأمل من جديد بتحقيق مطامعهم وأغراضهم، وخففت الرعب الذي سيطر على قلوب اليهود قلقا وخوفاعلى مصيرهم، بل يمكن القول أنهم تحرروا من خوفهم تماما بعد الغدر بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتل أصحاب الرجيع، وبئر معونة فعادوا مرة أخرى إلى أساليب المكر والخداع، وبدأوا في تعبئة حصونهم بالسلاح وجمع كل ما يمكن أن يحتاجوا إليه لمحاربة المسلمين، بل أغراهم قتل الصحابة والنيل منهم أن خططوا لما هو أعظم وأكبر من ذلك، وهو قتل النبي صلى الله عليه وسلم والغدر به.

فارتكب بنو النضير من الأخطاء ما دفع النبي صلى الله عليه وسلم على غزوهم وإجلائهم من المدينة حيث: نقض بنو النضير عهودهم التي أبرموها مع الرسول صلى الله عليه وسلم والتي تنص على ألا يؤووا عدوًا للمسلمين، ولم يكتفوا بهذا النقض، بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.

ذلك أنه في غزوة السويق نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكة بعد غزوة بدر، ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة، فلما خرج في مائتي راكب قاصدًا المدينة قام سيد بني النضير سلام بن مشكم بالوقوف معه وضيافته وأبطن له خبر الناس، وعلم ذلك الرسول وصحابته.

كذلك حاول يهود بنو النضيرقتل النبي صلى الله عليه وسلم فقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه عن طريق قباء إلى ديار بني النضير يستعينهم في دية القتيلين العامريين اللذين ذهبا ضحية جهل عمرو بن أمية الضمري بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما، وذلك وفقا للعهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين بني النضير حول أداء الديات. فاستقبل بنو النضير النبي صلى الله عليه

وسلم بكثير من البشاشة والمودة، ثم خلا بعضهم إلى بعض يتشاورون في قتله والغدر به، فاتفقوا على إلقاء صخرة عليه صلى الله عليه وسلم، من فوق جدار كان يجلس بالقرب منه، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا شك كان في حفظ الله، إذ جاءه جبريل عليه السلام بما عزموا عليه من شر، فنهض وانطلق بسرعة إلى المدينة.

وبلا شك كانت هذه المؤامرة التي أفشلها الوحي تستهدف القضاء على الإسلام، وليس القضاء على الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، فالتخطيط للقضاء على النبي المرسل معناه القضاء على دعوته بانقطاع نزول الوحي فمع قتل النبي تموت رسالته خاصة وأنه النبي الخاتم، لذا قرر النبي صلى الله عليه وسلم محاربة بني النضير لنقضهم العهد والمواثيق معه وأمر أصحابه بالاستعداد لقتالهم والسير إليهم.

وقد صورالطبري لنا هذه الغزوة تصويرا دقيقا قائلا: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير ليستعينهم في عقل أصحابه ومعه أبو بكر وعمر وعلي فقال: «أعينوني في عقل أصابني» فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينتظرون وجاء رأس القوم، وهو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، ولا ترون شرًّا أبدًا. فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه من مكانه فأنزل الله عز وجل: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**

فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ما أرادوا به.

فكان موقف النبي صلى الله عليه وسلم أن أرسل محمد بن مسلمة إليهم، وقال له: «اذهب إلى يهود بني النضير، وقل لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي؛ لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم مما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشرًا، فمن رُئي بعد منكم ضربت عنقه»، ولم يجدوا جوابًا يردون به سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يا محمد، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس فقال محمد: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، فقالوا: نتحمل فمكثوا أياما يعدون العدة للرحيل.

وفي تلك المدة كان للنفاق دورا وسعيا خفيا لمحاولة مساعدتهم والأبقاء عليهم داخل المدينة، فأرسل إليهم عبد الله بن أبي بن سلول سرا من يقول لهم: اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم ولا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين، فأقيموا فهم يدخلون معكم حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم، خاف اليهود واستعدوا للرحيل فعدو الإسلام غالبا ما يكون ضعيف، لكن النفاق يقويه ويثبت قواعده ويعطيه الدعم للبقاء وتثبيت أقدامه، فلولا النفاق ما استطاع أعداء الدين البقاء.

فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم (حيي بن أخطب) وأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم -أي لن نبرح- دارنا فاصنع ما بدا لك، فكبَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبَّر المسلمون معه وقال: «حاربت يهود».

انقضت الأيام العشرة ولم يخرج اليهود من ديارهم، فتحركت جيوش المسلمين صوبهم وضربت عليهم الحصار لمدة خمس عشرة ليلة. وأمر صلى الله عليه وسلم بحرق نخيلهم، فقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم وضعفت حماستهم للقتال، وجزعوا وتصايحوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها ؟. وألقى الله في قلوبهم الرعب، وأدرك بنو النضير أن لا مفر من جلائهم، ودب اليأس في قلوبهم خاصة بعد أن أخلف ابن سلول وعده بنصرهم، وعجز إخوانهم وأحبائهم أن يسوقوا إليهم خيرًا أو يدفعوا عنهم شرًا فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم.

فوافقهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال لهم: «اخرجوا منها، ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة - وهي الدروع والسلاح- فرضوا بذلك».

ونقض اليهود سقف بيوتهم وعمدها وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون.

وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوءًا ذهبًا وفضة وكان يقول: هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل. وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم حتى لا يشمت بهم

المسلمون فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام. وقد تولى عملية إخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة، بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فلما نزلوها دان لهم أهلها.

وقد وصف القرآن الكريم غزوة بني النضير في سورة الحشر، بل سمى حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر بسورة بني النضير، ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر، قال: سورة بني النضير.

وقد أوضحت سورة الحشر أحداث هذه الغزوة، وأوضحت موقف المنافقين من اليهود، كما كشفت عن حقائق نفسيات اليهود، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود. **وقد أكدت سورة الحشر أن من العوامل التي ساعدت في تحقيق النصر في غزوة بني النضيرالخوف الذي ألقاه الله عز وجل في قلوب اليهود.**

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

حيث تؤكد الآيات أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم، إذ بالرغم أن كل الأسباب المادية معهم حتى أنهم هم أنفسهم اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها وقوتها فكيف للمسلمين تجاوزها والدخول إليهم.

لكن الله كان قد قدرعليهم الجلاء فقذف في قلوبهم الرعب فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

فقد أخذ بنو النضير بجميع الأسباب المادية لتحقيق النصر حصون قوية وأسلحة كثيرة ومحاربين، لكن جاءتهم الهزيمة من مكان اطمأنوا إليه ولم يعدوا له العدة، أو يحسبوا له حساب كانت الهزيمة من داخل أنفسهم نعم جاء الرعب من داخلهم ألقاه الله في قلوبهم، وإذا بهم ينهزمون أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين الذين كانوا يروا أنفسهم متفوقين عليهم في كل شيء.

هذا إضافة إلى استخدام رسول الله صلى الله عليه وسلم نوعا جديدا من الحروب هو الحرب النفسية لأرهاب العدو وقذف الرعب في قلبه، فقد لجأ إلى أسلوب جديد وهو حرق نخيلهم أثمن ممتلكاتهم، ما كان له أعظم الأثر في هزيمتهم النفسية واستسلامهم للرسول ونزولهم عند أمره بالخروج من المدينة.

وكما أوضحت الآيات حالة اليهود أوضحت كذلك حالة المنافقين، وموقفهم وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

فقد أخبرنا الله عز وجل عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأمثاله حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم بمناصرتهم، بقوله: (لإِخْوَانِهِمُ) ليوضح شدة المحبة والقرب بينهم فهم أخوة الكفر، يهود بني النضير والمنافقين إخوانا، جمعهم الكفر، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر بالإسلام وعداوته.

غزوة الخندق

شهدت المدينة المنورة فترة من الهدوء والأمن بعد الحروب والبعوث التي استغرقت أكثر من سنة، إلا أن اليهود الذين ذاقوا الذل والهوان نتيجة غدرهم وخياناتهم، ومؤامراتهم ونقض عهودهم لم يكونوا ليرضوا بالأمن والاستقرار والحياة الهادئة التي يعيشونها في ظل وفاء رسول الله بعهده معهم، فهم على ماهم عليه من كره وحقد على الإسلام، لم يتعظوا بما أصاب إخوانهم من اليهود الذين حاربهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأجلاهم عن المدينة نتيجة الغدر والتآمر ونقض العهد. إذ بعد نفيهم إلى خيبر، ظلوا ينتظرون أن يحل السوء بالمسلمين من خلال المواجهات التي كانت تتم من حين وآخر بين المسلمين من جانب وقريش وحلفائها من جانب آخر.

ولكن تأتي الرياح بما لم تشته السفن فقد تحولت الأحداث لصالح المسلمين، فبسطوا نفوذهم واستقر حكمهم وعلت راية الإسلام ما أشعل نار الحقد والحسد في قلوب هؤلاء اليهود. فبدأوا في التآمر من جديد على المسلمين، وبدأوا يعدون العدة،

لتوجيه ضربة للمسلمين مع الحرص أن تكون قاتلة هذه المرة، تضمن لهم القضاء على الإسلام وأهله، وإلا ستكون نهايتهم كما حدث مع من سبقهم من اليهود.

ومع شدة رغبتهم في التخلص من الإسلام وأهله إلا أنهم أهل جبن لا يملكون من الجرأة والشجاعة ما يساعدهم على المواجهة، وقتال المسلمين مباشرة، فكان الحل دفع غيرهم للقيام بذلك على أن يقدموا لهم المساعدة، فمن يمكن أن يوافقهم ويقبل عرضهم أفضل من العدو الأول للإسلام؟ من أفضل من قريش ومن والاها من قبائل عربية؟

فخرج وفد من بني يهود يضم سلاّم ابن أبي الحقيق النَّضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي الحُقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النَّضير، ونفر من بني وائل حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله؛ فقالت لهم قريش : يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله تعالى فيهم :

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَـٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}.

فلما قالوا ذلك لقريش، سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه، من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود، حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه. وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الشرك والكفرعلى النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

ونتيجة ذلك خرج من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة بقيادة أبو سفيان في أربعة آلاف مقاتل، ولحق بهم بنو سليم بمرِ الظَّهران، وخرج من الشرق قبائل غطفان بنو فَزارة بقيادة عُيينة بن حصن، وبنو مُرة بقيادة الحارث بن عوف، وبنو أشجع بقيادة مسعر بن رحيلَة، كما خرجت بنو أسد وغيرها.

واتجهت هذه الأحزاب نحو المدينة، بعد أن تم الاتفاق بينهم على ميعاد يجتمعوا فيه بالمدينة المنورة. ولا شك كان الاتفاق أن يتجهوا إلى المدينة بغتة دون أن يعلم أحد لتوجيه ضربة قاضية وأنهاء أمر الإسلام، ولو تم ذلك حقا ولم يصل خبر هذا الجيش للرسول في المدينة لشكل فعلا خطراً عظيما عليها، ربما يصل إلى حد استئصال الإسلام والمسلمين، ولكن عيون النبي صلى الله عليه وسلم كانت على درجة عالية من اليقظة والمتابعة، فلم تكد هذه الجيوش تتحرك قاصدة المدينة حتى نقلت إليه الخبر وأعلمته أمر هذا الجيش الخطير المتجه للمدينة.

فسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جمع الصحابة، ليناقش معهم كيفية مواجهة هذا الجيش والدفاع عن المدينة وحمايتها، وبعد مناقشات شارك فيها جميع الصحابة مهاجرين وأنصار اتفقوا على حل اقترحه الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه.

حيث قال: يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خَنْدَقْنَا علينا. وكانت خطة ستكون صادمة لجيوش الشرك، فالفكرة جديدة وغريبة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك، ما جعلها تلقى استحسان النبي وموافقته فأسرع صلى الله عليه وسلم إلى تنفيذها، فهو عقليه متفتحة تقبل كل جديد طالما فيه نفع للمسلمين وغير مخالف للشرع، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق رغم ما يعانوه من جوع وإرهاق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحثهم ويساهم معهم في العمل.

وكانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، لذلك استنتج النبي صلى الله عليه وسلم أن زحف مثل هذا الجيش الكبير ومهاجمته المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال، فحفر الخندق في هذا الجانب.

عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون، فدأب فيه، ودأبوا، لكن هل كل أهل المدينة كانوا على نفس القدر من المسؤلية والحرص في الدفاع عن دينهم ومدينتهم؟

بالطبع لا، إذ أبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يقوموا بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم

بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن، ففي حين أن الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له، فإذ قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له.

فأنزل الله تعالى في أولئك من المؤمنين:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

نزلت هذه فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

أما المنافقون فكانوا يحاولون بكل وسيلة التخلي عن المساعدة، حتى وصل بهم الأمر أن كانوا يذهبون دون إذن النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذنه وفيهم أنزل الله تعالى:

{لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

واشتدت الظروف سوءا، فبينما كان المسلمون يواجهون هذه المخاطر والشدائد، وبينما كانت الألوف تحيط بالمدينة تريد الشر والقضاء على أهلها، كانت هناك شياطين تسعى لتضييق الخناق على المسلمين أملا في القضاء عليهم، حيث انطلق حيي بن أخطب سيد بني النضير إلى ديار بني قريظة فأتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصره إذا أصابته حرب، فضرب عليه حيي الباب فأغلقه كعب دونه في باديء الأمر التزاما بعهده مع الرسول، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه، فقال حيي: إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طَامٍ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رُومَة، وبغطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمَى إلى جانب أحد و قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذُلِّ الدهر. ويحك يا حيي فدعني وما

أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء. فلم يزل حيي بكعب يفْتِلُه في الذِّرْوَة والغَارِب، حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين، وانضم مع المشركين في حربهم ضد المسلمين.

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر وإلى المسلمين، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بن النعمان، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة بن دليم، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبدالله بن رواحة، أخو بني الحارث بن الخزرج، وخوات بن جبير، أخو بني عمرو بن عوف؛ فقال: انطلقوا حتى تنظروا، أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلا فيه حده؛ فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة. ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة؛ أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.

وأقام المشركون محاصرين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين شهراً أو نحو شهر. وفي ذلك أنزل الله تعالى: {وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}.

وسط هذه الشدائد، المشركون وانضم إليهم اليهود يحيطون بالمدينة وأهلها يريدون شرا، والكل يجتهد للدفاع عن المدينة المحاصرة بجيش لا قبل لهم به، الظروف في غاية السوء ومع ذلك كان من الصعب أن يصمت النفاق دون محاولة استغلال الفرصة لبث سمومهم طمعا في إضعاف المسلمين ونشر روح اليأس والخوف في قلوبهم، فنرى ألسنة أحد من السيوف ونسمع أصواتا ناقدة حاقدة قائلة: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وقرر البعض الآخر الانسحاب من القتال والدفاع عن المدينة

بقولهم: إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة.

حتى نزل فيهم قول الله تعالي: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقنع بثوبه حين أتاه غَدْر قريظة، واضطجع ومكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء، ثم نهض مبشراً يقول:

الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره

المدينة يحيط بها عشرة آلاف مقاتل، وبنو قريظة نقضت العهد مع الرسول، والنفاق أطل برأسه ليوهن عزيمة المسلمين، والجوع والبرد وقلة العدد والعدة، ونبي الله يبشر بالنصر والفتح هذا وعد الله يبشر به نبيه وخاتم رسله.

وقد تحقق هذا النصر حقا كما وعد الله ورسوله وكان من أهم أسباب النصر سببين هامين أرادهما الله سبحانه لنصرة المسلمين هما:

الأول: إسلام رجل من غطفان هو نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي رضي الله عنه. أراد الله أن ينحاز ذلك الرجل في مثل هذا الوقت إلى المسلمين. كان من الممكن أن ينتظر حتى انتهاء المعركة، ولكنها حكمة الله ومشيئته التي لا يعلم عنها أحد حكمة تعمل في الغيب لنصرة المسلمين وتحقيق الوعد كما أوضح لنا الله ذلك بقوله: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}

أسلم نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي رضي الله عنه، وقرر أن لا يخبر أحد بإسلامه قبل رسول الله، وكان هذا من حكمة الله لنصرة نبيه، فذهب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إنما أنت رجل واحد، فَخذِّلْ عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة"

فذهب من فوره إلى بني قريظة وكان عشيراً لهم في الجاهلية فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت. قال: فإن قريشاً ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه،

وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم ؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم 70 رهينة قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش وقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم؟ قالوا: نعم، قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة 5هـ بعثوا إلى يهود: أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا 70 من سادتكم وأشرافكم رهائن عندنا حتى نهاية الحرب، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم.

أما الثاني: إرسال الله تعالى لجنده، وكان المسلمون يدعون الله تعالى: (اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا)، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على الأحزاب:

" اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم"

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين وسرى بينهم التخاذل أرسل الله عليهم جنداً من الريح فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قِدْرًا إلا كفأتها، ولا طُنُبًا إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وأرسل جنداً من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف.

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحالة، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة.

وكانت غزوة الخندق من المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام، إذ كان من أهم نتائجها الحقيقة الراسخة التي استقرت في قلوب الجميع مؤمن أو كافر أو منافق أن أية قوة من قوى العرب لم تعد تستطيع هزيمة تلك القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة، حيث أن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى وأكبر مما أتت به في غزوة الأحزاب وبالرغم من ذلك فشلوا في تحقيق النصر وعادوا مهزومين ولم يكن في مقدورهم إعادة حشد مثل هذا العدد مرة أخرى، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجلى الله الأحزاب:

"الآن نغزوهم، ولا يغزونا، نحن نسير إليهم"

غزوة بني قريظة

كما ذكرنا سابقا بمجرد أن وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة حرص أن يعقد مع اليهود الموجودين بها المعاهدات، لحفظ الدماء ونبذ الشحناء حتى يستطيع نشر دعوة الإسلام بالموعظة الحسنة دون سفك الدماء، وقد التزم النبي بكل بنود هذه المعاهدات، ولكن اليهود أهل غدر وخيانة، استخفوا بها وبدأت قبائلهم بنقضها الواحدة تلو الأخرى، إذ بالرغم أن من أهم بنود المعاهدة: التزام كل من المسلمين واليهود بالمعايشة السلمية فيما بينهما وعدم اعتداء أي فريق منهما على الآخر في الداخل عملا بقوله تعالى "لكم دينكم ولي دين ".

وتعهد كل من الطرفين بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أي اعتداء خارجي، وعلى اليهود أن يتفقوا مع المؤمنين ما داموا محاربين. لكن ما حدث كان العكس، إذ عندما تجمعت قريش وغطفان وعدد من القبائل الأخرى لمحاربة المسلمين والقضاء عليهم داخل المدينة، وأحاطت جيوش الأحزاب بالمدينة في عشرة آلاف، في حين لم يزد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل. ووفقا لما بين المسلمين واليهود من معاهدات، كان المنتظر أن ينضم يهود بني قريظة إلى صفوف المسلمين ضد القوات الزاحفة على المدينة بناء على نصوص المعاهدة المبرمة بين الفريقين، لكن ما حدث كان العكس تمامًا، فلم تكتفِ بنو قريظة بموقف المتفرج فلا تحارب مع المسلمين ولا تشارك في القتال، بل تجاوزوا ذلك بكثير فقبلوا بخيانة المسلمين والمشاركة في محاربتهم دون مراعاة للمعاهدات التي عقدت للدفاع المشترك عن المدينة وأهلها،

وذلك رغبة في هزيمة المسلمين والقضاء عليهم قضاء تامًّا، تلك الرغبة الدفينة والأصيلة داخل قلوبهم.

وبمجرد أن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الخيانة الخطيرة حاول منعها وحث بني قريظة على الوفاء بعهدهم معه، وردهم للطريق االصحيح فأرسل وفدًا من الصحابة؛ ليذكروا القوم بما بينهم وبين المسلمين من عهود، ويحذروهم مغبة ما هم مقدمون عليه، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، وقالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبينه!! وهكذا ركب القوم رءوسهم، وقرروا الانضمام لقريش وحلفائها فأمدوهم بالمال والعتاد.

لكن شاء الله أن ينهزم ذلك التحالف الغادر الحاقد والكاره للحق وأهله رغم ضخامته وصعوبة هزيمته {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}. وبعد فشل تلك الغزوة مباشرة جاء الوحي رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بأن ينهض إلى بني قريظة جزاء لمكرهم وغدرهم وخيانتهم، فسار إليها وحاصرها صلى الله عليه وسلم والمسلمون شهرا أو خمسة وعشرين يوما.

فلما أيقنوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم : يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا أيها شئتم؛ قالوا : وما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم؛ قالوا : لا نفارق حكم التوارة أبدا، ولا نستبدل به غيره؛ قال : فإذا أبيتم عليّ هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مُصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءانا نسلا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء؛ قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فإن أبيتم عليّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نُصيب من محمد وأصحابه غرة؛ قالوا : نفسد سبتنا علينا، ونحُدث فيه ما لم يحدث مَنْ كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما.

ولما طال عليهم الحصارعرضوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتركهم ليخرجوا إلى أذرعات بالشام تاركين وراءهم ما يملكون، ورفض صلى الله عليه وسلم إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط، وبالفعل استسلم يهود بني قريظة، ونزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوكل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ أحد رؤساء الأوس. إذ لما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت – يقصدون بني قينقاع وقد ترك الحكم فيهم لابن سلول - فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذاك إلى سعد بن معاذ.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها: رُفيدة، كانت تداوي الجرحى، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب.

فلما حكَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة، أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطَّئوا له بوسادة من أدم، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم؛ فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبدالأشهل، فنَعَى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قوموا إلى سيدكم فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم؛ فقال سعد بن معاذ :عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنّ الحكم فيهم لمَا حكمت ؟ قالوا: نعم: وعلى من هاهنا ؟ في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم؛ قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء.

كان سعد حليف بني قريظة في الجاهلية، وقد ارتاح اليهود لهذا الاختيار، وظنوا أن الرجل قد يحسن إليهم في حكمه، لكن إن كان سعدا حليف اليهود بالأمس فهو اليوم مسلم قوي الإيمان وكان أحد المقاتلين ممن عايش الشدائد التي مر بها المسلمون في غزوة الأحزاب، وكان بنو قريظة أحد أسبابها، فبحث الموقف من جميع جوانبه فقد عايش أحداثه وظروفه، وشاهد محنه وشدائده، وأدرك الخطر الذي كان من الممكن أن يحل بالمدينة لو انتصرت قريش وغطفان بمساعدة بني قريظة، فقد كان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى القضاء على المسلمين بالمدينة لولا لطف الله ومشيئته التي أنقذتهم من هلاك محقق.

كما كان هو نفسه شاهدا على إصرار بني قريظة على الغدر بالمسلمين، فقد أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ليرجعوا عن غدرهم وغيهم، لكن القوم مضوا في عنادهم لا يقدرون عاقبة فعلهم، ولا يراعون الله في عهد ولا ميثاق، ولذلك لما كُلِّم في شأنهم قال رضي الله عنه: "لقد آنَ لسعدٍ ألا تأخذه في الله لومة لائم"، ثم قال: "إني أحكم أن تُقتل مقاتلتُهم وتُسبَى ذريتُهم وأموالهم"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حَكَمْتَ فيهم بحُكْمِ اللهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ"، فقتل رجالهم، وسبي نساءهم وذراريهم، ومَن لم يُنبِتْ من أولادهم، ولاقى بنو قريظة أسوأ مصير على أفظع خيانة، وظهر الفرق بين المؤمن كيف يكون ولائه لله والمنافق كيف يكون ولائه لهواه.

غزوة بني المصطلق

أو غزوة المريسيع في شعبان سنة 5 أو 6 هـ وهذه الغزوة وإن لم تكن من الغزوات الكبرى من الناحية العسكرية فلم تستمر لفترة طويلة ولم يكن عدد الشهداء فيها كبيرا، إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي، وعرت المنافقين وكشفت سواد قلوبهم وأظهرت حقدهم الدفين.

فقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي لتحقيق الخبر فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر.

وبعد أن تأكد لديه صلى الله عليه وسلم صحة الخبر ندب الصحابة، وأسرع في الخروج بعد أن استعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل: أبا ذر، وقيل: نميلَة بن عبد الله الليثي، وكان الحارث بن أبي ضرار قد وجه عينًا ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي، فألقي المسلمون القبض عليه وقتلوه، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان، وفي هذه المرة خرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها.

ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله عينه، خافوا خوفاً شديداً وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المريسِيع، والمريسيع اسم لماء من مياههم في ناحية قديد إلى الساحل فتهيأوا للقتال.

صف رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، وكانت راية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النصرة وانهزم اليهود، وقتل من قتل، وسبى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء والذراري والنعم والشاة، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظناً منه أنه من العدو.

وكان من جملة السبي: جُوَيْرِيَة بنت الحارث سيد القوم، وقعت في سهم ثابت ابن قيس، فكاتبها، فأدي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولم يكن من الممكن ألا يكون للمنافقين دور في غزوة بني المصطلق، إذ كان لابن سلول في هذه الغزوة دور كبير حاول من خلاله إثارة الفتنة والبلبة بين صفوف المسلمين، فهو شديد الكره والحقد للإسلام والرسول، ولم يكن هذا الكره جديدا عليه فقد ظهر كرهه هذا منذ بداية الهجرة و قبل أن يتظاهر بالإسلام، على نحو ما رأينا في الحوار الذي دار بينه وبين الرسول عندما ركب صلى الله عليه وسلم على حمار ليعود سعد بن عبادة، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبي فخَمَّرَ ابن أبي أنفه، وقال: لا تُغَبِّرُوا علينا. ولما نزل الرسول صلى الله عليه وسلم وتلا القرآن على المجلس، قال له ابن سلول معبرا عن حقده وحسده: أجلس في بيتك، ولا تؤذنا في مجالسنا، هذا الذي تجرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فطرده من مجلسه.

ثم اضطر إلى التظاهر بالإسلام بعد بدر فهل يمكن لحقده أن ينتهي؟ كلا، ظل عدوًا لله ولرسوله وللمؤمنين، فلم يكن في قلبه سوى الحقد والكره لنبي الله.

كان ابن سلول ماكرًا شديد المكر وكان جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين يعلمون جيداً أن سبب انتصار وهيمنة الإسلام ليس التفوق المادي متمثلا في كثرة العدد والعدة، وغزوة بدر أفضل دليل على ذلك، ولكن في القيم والمباديء والأخلاق الحميدة التي يدعو إليها الإسلام وأصبح يتمتع بها المجتمع الإسلامي ويتعامل وفقا لها فأصبحوا بفضل هذه القيم إخوانا يضمهم بيت واحد هو بيت النبوة، وكانوا كذلك يعرفون أن منبع هذا ومصدره إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو المثل الأعلى لهذه القيم {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، وأصبحوا على يقين أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن أن يكون من خلال الحروب العسكرية، ولكن من خلال الحروب الأخلاقية، من خلال محاربة قيمة ومبادئه متمثلة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم من جانب، وقيم الإخاء والوحدة والمحبة التي تربط جميع اتباعه من جانب آخر، وجائتهم الفرصة لنشر الإشاعات والأكاذيب والقيم الفاسدة، وأن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم هدف ومحور لأكاذيبهم وإشاعاتهم لأحداث الارتباك الشديد في صفوف المسلمين، كما جائتهم فرصة أخرى لبث الفتنة والكراهية بين المسلمين مهاجرين وأنصار من جانب آخر، فكان عملهم على أكثر من محور.

جائتهم الفرصة الذهبية لبث روح الفرقة بين المهاجرين والأنصار من خلال الخلاف الذي حدث بينهم على الماء، فأسرعوا في استغلاله لبث سموم حقدهم وكراهيتهم بين المسلمين طمعا في إحداث الوقيعة بينهم، فخرجت من فم ابن سلول كلماته المسمومة {لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ}

إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الغزوة مقيماً على المُرَيْسِيع، ووردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير يقال له: جَهْجَاه الغفاري، فازدحم هو وسِنَان بن وَبَر الجهني على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها مُنْتِنَة)، وبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فغضب وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث وقال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أما والله

لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر، فأخبر عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر، فقال عمر: مُرْ عَبَّاد بن بشر فليقتله. فقال: (فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا ولكن أَذِّنْ بالرحيل)، وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس، فلقيه أسيد بن حضير فحياه، وقال: لقد رحت في ساعة منكرة؟ فقال له: (أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟) يريد ابن أبي، فقال: وما قال؟ قال: (زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)، قال: فأنت يا رسول الله، تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخَرَز ليتوجوه، فإنه يري أنك استلبته ملكاً.

ثم مشي بالناس يومهم ذلك حتى أمسي، وليلتهم حتى أصبح، وصَدْر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نياماً. فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث.

ففي هذه الغزوة لا نقول أن المنافقين استطاعوا النيل من وحدة المسلمين، بل نقول كادوا أن يقودوا المسلمين بالمدينة إلى حرب لا يعلم حدودها إلا الله، ولكن الله تعالى سلم، وليس هذا وحسب بل كشف المنافقين وفضح أمرهم، فقد تحدث ابن سلول بما في قلبه من كره وحقد وحسد دون أن يدرك وجود مؤمن قوي الإيمان يسمع ويشهد ويدرك خطورة كل حرف قيل رغم صغر سنه.

يقول زيد بن أرقم وكان فتىً غلامًا يافعًا: سمعتُ عبد الله بن أُبي يقول): لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا)، سمعه يصدر أوامره للمنافقين من حوله لا تنفقواعلى من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله.

وهذا معناه عدم إيواء المهاجرين الذين جاءوا المدينة تاركين ديارهم وأموالهم، ومنع أي مساعدة عنهم، فهو تحريض صريح من ابن سلول لإخراج المهاجرين من المدينة وهل يعني قوله (سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) غير الدعوة ضمنا بإخراج المسلمين من المدينة، ثم تلي هذه الدعوة دعوة أخرى تأمر بالتضييق الأقتصادي (لا تنفقوا على من عند رسول الله

حتى ينفضوا من حوله) ما يعني منع المال عن الدعوة والذي هو بمثابة شريان الحياة لتنتشر وتقوى، وبمنعه لا يكون أمامها إلا البحث عن موطن آخر أو تنتهي.

فعبد الله بن أُبي كان يعلم تماما النتيجة المترتبة على كلامه، يعلم أن وقف الدعم المالي يصيب الدعوة في مقتل، وهذه هي نفسية المنافق فهو حاقد حاسد كاره للإسلام لا يرضيه شيء سوى هدم الدين والقضاء عليه، ولكن هيهات هيهات أن يصل لذلك فالله كاشف المنافقين وحافظ دعوته.

تحدث ابن سلول هذا الكلام بين أنصاره مطمئنا فالجميع يوافقونه الرأي ويجري الكره والحسد للدعوة الجديدة في عروقهم مجرى الدم، لكن يشاء الله أن يكون ذلك الفتى المؤمن بينهم إنه زيد بن أرقم الذي سمع ما قيل، وأيقن ضرورة نقل هذا الكلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن كيف ؟

يخبرنا زيد نفسه كيف نقل هذه المعلومات الهامة للرسول ؟.

يقول زيد: "فذكرتُ ذلك لعمي؛ أي: ذكر له العبارتين اللتين سمعهما من عبد الله بن أُبي، الأولى: (لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا)، والثانية): لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلّ(. وعمه المقصود هو سعد بن عُبادة سيد قومه أي سيد الخزرج، فيقول بن أرقم: فذكرتُ ذلك لعمي فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن أُبي قال: كذا، وكذا.

العبارات خطيرة وتهدد وحدة المسلمين ولا يدرك خطرها إلا مؤمن راشد حكيم قوي الإيمان يحب دينه ويخاف عليه، ويصعب أن يدرك خطورتها غلام في مثل سن زيد هكذا ظن ابن سلول، إلا أنه فتى مختلف ككل فتيان المدينة فقد تربى في مجتمع النبوة الذي صقله على الإيمان وحب الدين، ويكفيه هذا ليملك من الحكمة والإيمان ما يدرك ويشعر به أي خطر يهدد المسلمين فكان من الطبيعي أن يشعر أن هاتين العبارتين يجب نلقهما وتبليغهما للرسول لما لهما من خطر عظيم.

قال زيد بن أرقم: "فذكرتُ ذلك لعمي فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم، فدعاني، فحدثته ".

إذ نظرا لخطورة الكلام أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسمع من زيد بن أرقم مباشرة، فاستدعى زيد بن أرقم، وسمع منه، كما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أُبي، فلابد من مواجهة عبد الله بن أُبي وأصحابه كذلك.

كان لابد من سؤاله أنتم قلتم كذا؟ فحلفوا ما قالوا، وهؤلاء هم المنافقون كاذبون، وهذا هو المتوقع والمعتاد منهم في مثل هذه الحالات الحلِف الكاذب {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً}، {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا} فهم والصدق أعداء.

قال زيد: فكذّبني رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدّقه، قال: لعلك أخطأ سمعك، لعلك شُبِّه عليك فالغلام في مثل سنه قد يخطئ في النقل، قد يتوهم أشياء، وإن كان يُحتمل أن يكون صادقا، لكن يقول زيد: فكذبني النبي عليه الصلاة والسلام. (وربما كذبه في الظاهر فقط، أما في الباطن فهو يصدقه، ولكن من الصعب القول بصدق زيد وتكذيب ابن سلول خاصة بعد حلفه أنه ما قال، فالنبي صلى الله عليه وسلم تأليفًا لقلب هذا المنافق صدّقه على يمينه، وهذا يعني ضمناً تكذيب زيد بن أرقم ذلك أنه لم يعتمد روايته، وقبل يمين المنافق).

وهذا لا شك جعل زيد بن أرقم يشعر بالهم والغم. وهذا ما نلحظه في قول زيد: "فأصابني همٌ لم يصبني مثله قط، فجلستُ في البيت من الغمّ."

وفي رواية: "فرجعتُ إلى المنزل، فنمتُ كئيبًا حزينًا، فقال لي عمي: "ما أردتَ إلى أن كذبك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتك" ما قصدك؟ تنقل كلام خطير مثل هذا؟

نعم وقع الكلام في نفس زيد شديدا، لكن إذا كان ابن سلول كذاب، فإن الله تعالى يسمع ويرى ويعلم الصادق والكاذب ولابد أن يزول الكرب ويظهر الله الحق فينصر المظلوم ويفضح الكاذب، فأنزل الله قرآنا في نصرة زيد بن أرقم ورفع الظلم عنه، وتكذيب ابن سلول وفضحه.

تنزلت الآيات تؤكد كلام زيد، فالكلام الذي نقله زيد بن أرقم دقيق جداً، فقد نقل الكلام كما هو بحروفه بل وحركاته، نعم سمع وتثبّت ووعى وشهد وبلّغ بدقة شديدة وجاءت الآيات بتصديق زيد بن أرقم في الكلام الذي نقله بالنص دون أن يزيد أو ينقص حرفا واحدا بل كما قيل تماما لدرجة أن الآيات تنزلت بنفس الجمل دون تغيير {لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا}، {لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل}.

نزلت الآيات فكشفت الحقيقة فكان أول شيء فعله النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآيات أن استدعى زيد بن أرقم يقول زيد: "فأرسل إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأها عليّ أول ما نزلت، ثم قال إن الله قد صدقك يا زيد ".

وكان للآيات وكلام الرسول أثرًا عظيمًا في نفس زيد كما حكى زيد بنفسه في رواية صحيحة رويت عنه: "فبينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خفقتُ برأسي من الهم، أتاني النبي عليه الصلاة والسلام، فعرك بأذني وضحك في وجهي، فما كان يسرّني أن لي بها الخلد في الدنيا"

ثم إن أبا بكر لحقني، فقال: "ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلتُ: "ما قال لي شيئًا إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي" فقال: أبشر

ثم لحقني عُمر فقال "ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم "، فقلت لهُ مثل قولي لأبي بكر.

فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر سورة المنافقين، ثم دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم، وقال لهم بعض قومهم: ما دمتم قد أذنبتم، وثبتت الجريمة عليكم {تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُم}.

وهذه فرصة عظيمة عرضت عليهم، أن يستغفر لهم رسول الله، لكن المنافق حاقد حاسد محروم قلبه من الخير وحلاوة الإيمان لذلك كان جوابهم (لووا رءوسهم) رافضين هذه الفرصة العظيمة للمغفرة.

والمفارقة الجديرة بالذكر هنا أن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رجلاً صادق الإيمان شديد الحب للرسول بل هو من خيرة الصحابة، فتبرأ من أبيه، ووقف له على باب المدينة، واستل سيفه، فلما جاء ابن أبي قال له: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم أذن له فخلى سبيله، وكان قد قال عبد الله ابن عبد الله بن أبي: يا رسول الله، إن أردت قتله فمرني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه، تبرأ من أبيه رغم أنه شديد البر به والحب له، لكن لا حب فوق حب النبي.

حديث الإفك

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك ومحاولة النيل من سمعة النبي وأهل بيته، وملخصها: أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه، وأثناء رجوعهم من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة رضي الله عنها لحاجتها، ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هَوْدَجَها فظنوها فيه فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفته؛ لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها، وأيضاً فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته، ولو كان الذي حمله واحداً أو اثنين لم يخف عليهما الحال، فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها، فغلبتها عيناها، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وكان صفوان قد عَرَس في أخريات الجيش؛ لأنه كان كثير النوم، فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى قدم بها، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة، فلما رأي ذلك الناس تكلم كل منهم بما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفساً لحقده، فحاك قصة الإفك وأخذ يشيعه ويذيعه وينشره بين المسلمين، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لايتكلم، ثم استشار أصحابه علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، أما علي فقال له يا رسول الله النساء كثير وسل الجارية تصدقك، وأما أسامة رضي الله عنه قال أهلك يا رسول الله ولا نعلم منهم إلا خيرا، وهذا الكذب والباطل. فقام صلى الله عليه وسلم على المنبر يستعذر من أصحاب الأفك، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتلهم فأخذت سعد بن عبادة سيد الخزرج، وهي قبيلة ابن سلول الحمية القبلية، فجري بينهما كلام تثاور له الحيان، فخفضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا وسكت.

أما عائشة فلما رجعت مرضت شهراً، وهي لاتعلم عن حديث الإفك شيئاً، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي فطلبت من رسول الله أن تذهب إلى بيت أبي بكر حتى تشفى، فلما نقهت خرجت مع أم مِسْطَح إلى البراز ليلاً، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت تعس مسطح فاستنكرت عليها السيدة عائشة ذلك قائلة لها كيف تقولي ذلك على رجل شهد بدرا، فأخبرتها الخبر، فرجعت لتأتي أبويها وتستيقن الخبر، ثم أتتهما وعرفت منهما صحة الأمر، فجعلت تبكي، فبكت ليلتين ويوماً، لم تكن تكتحل بنوم، ولا يرقأ لها دمع، حتى ظنت أن البكاء فالق كبدها، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه).

تقول عائشة: فقلص دمعي، وقالت لكل من أبويها ألا تجيبان رسول الله، فلم يدريا ما يقولان. فقالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا. لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة . والله يعلم أني بريئة . لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر . والله يعلم أني منه بريئة . لتُصَدِّقنِّي، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}.

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي، فَسُرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكانت أول كلمة تكلم بها: (أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله برائتك)، فقالت لها أمها: قومي إلى رسول الله فقالت عائشة .إدلالاً ببراءة ساحتها، وثقة بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله.

حيث أنزل الله الآيات من سورة النور: {إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...}

وجُلِد من أهل الإفك مِسْطَح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحَمْنَة بنت جحش، جلدوا ثمانين ثمانين، ولم يُحَدّ الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس الإفك، والذي تولي كبره؛ إما لأن الحدود تخفيف لأهلها، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، وإما لعدم إثارة العصبية القبلية ومن ثم إحداث الفرقة بين صفوف المسلمين.

وهكذا وبعد شهر زالت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطراب عن المدينة، وافتضح رأس المنافقين فضيحة لم يستطع معها أن يرفع رأسه بعد ذلك، فإذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: (كيف ترى يا عمر؟ أما والله لوقتلته يوم قلت لي: اقتله، لأرعدت له آنف، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته). فقال عمر: قد والله علمتُ، لأمْر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري، وبذلك تنتهي غزوة المصطلق لنصل إلى آخر غزوات الرسول، والأكثر فضحا للمنافقين.

غزوة تبوك

زادت غزوة تبوك المنافقين وضوحا وأظهرت كيدهم للإسلام كوضوح الشمس، جاءت لتميز الصف المسلم وتقوم بتمحيصه من أصحاب النفوس المريضة من المنافقين، إذ كانت الظروف المحيطة بها في غاية الصعوبة من جفاف وقلة مال وعدد وعدة. والأخطر من ذلك هؤلاء المنافقين الذين دخلوا في صفوف المسلمين غايتهم هدف واحد نشر الفساد وإحداث الفرقة بين المسلمين، فهم كالسرطان داخل الجسد يبقى بداخله للقضاء عليه ما يستوجب ضرورة التعامل معهم بأسرع ما يمكن، أو على الأقل كشف حقيقتهم وذلك أضعف الإيمان، فإذا قويت الأمة أصبح من الواجب عليها معرفة وتمييز مؤامرات وخطط هؤلاء المنافقين المندسين داخلها لإضعافها والقضاء عليها، وكلما ضعفت زاد هذا الواجب وجوبا لمعرفتهم وأبعادهم عن أي قرار هام تستطيع به الأمة أن تستعيد بوصلتها وتستجمع قوتها وتعود إلى ما كانت عليه من مكانة وعزة.

وفي غزوة تبوك كان الابتلاء صعب وكانت المواقف كاشفة أو لنقل فاضحة أظهرت جليا المؤمن قوي الإيمان ومن يدعيه، فبعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجًا وأصبح الإسلام قوة يعرف قدرها القاصي والداني فزاد ذلك المنافقين كرها وحسدا عليه وعلى أهله. خاصة أنه بعد انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية، اتجهت الدعوة خارجها، فبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في إرسال رسله خارج الجزيرة ودعوة الناس للدين الحق وعبادة الله الواحد الأحد.

وكان هرقل ملك الروم أحد الملوك الذين دعاهم الرسول للإيمان والدخول في الإسلام مما أدى إلى حدوث المواجهة مع الرومان أكبر قوة عسكرية في العالم في ذلك الوقت، وكان صدام الروم مع المسلمين في موقعة مؤتة سنة 8هـ وما أسفرت عنه من انتصار للمسلمين رغم انسحابهم بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، فلم يغب عن ذهن هرقل ضرورة رد الهزيمة بعمل عسكري ضخم وقوي يكسرشوكة المسلمين المتزايدة قبل أن يتزايد خطرها وتهدده في عقر داره، فأعد هرقل جيشا ضخما من الرومان والعرب الغساسنة عازما التوجه لملاقاة المسلمين والقضاء عليهم.

وصلت الأخبار للرسول والمسلمين في المدينة بحشود الرومان التي خرجت لمواجهتهم، وأنها قد وصلت لأرض البلقاء بالشام. فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم في تجهيز جيش المسلمين رغم الصعوبات والمخاطر التي كانت تواجهه والتي منها:

1- قوة العدو، فالرومان كانوا أكبر قوة عسكرية على وجه الأرض وقتها.

2- كان الوقت صيفا والحرارة شديدة خاصة في الصحراء والمسافة بعيدة والطريق وعرة صعبة.

3- كان الناس وقتها في عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر، هذا بالإضافة أن الوقت كان وقت حصاد الثمار وكان الناس يحبون أن يمكثوا في ثمارهم وظلالهم.

4- توارد الأخبار المتلاحقة بأعداد الجيوش المعادية وتحركها صوب المدينة ونزولها بأرض البلقاء، لذلك قرر الرسول صلى الله عليه وسلم إعداد العدة لغزو الروم قبل أن يهجموا هم على المسلمين في المدينة.

وكان رسول الله إذا أراد الغزو لم يصرح بجهة غزوته، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يتجه إليه من قبيل الخدعة الحربية، أما في هذه المرة ولخطورة الموقف، فالمسافة بعيدة والعدو قوي صرح الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلن أنه يريد لقاء الرومان في أرضهم، ليكون الناس على بينة من أمرهم، ويتأهبوا تمامًا لعدو قوي، وسفر طويل وشاق.

قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس خطيبًا ليحثهم على الإنفاق في سبيل الله وتجهيز جيش العسرة، وقال: "من جهز جيش العسرة غفر الله له" فانبرى الناس وتسارعوا في الصدقة، وكان هذا اليوم يوم عثمان رضي الله عنه الذي تصدق بمائتي بعير ومائة فرس وألف دينار ذهبي، فقال له الرسول: "ما ضر عثمان ما عمل بعد

اليوم"، وجاء أبو بكررضي الله عنه بماله كله، وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، شارك الجميع كل بحسب طاقته وقدرته على النفقة، إلا فئة واحدة لم تشارك ولم تكتف بعدم المشاركة بل سعت لتثبيط المسلمين عن الخروج في الغزوة، إذ اثناء انشغال النبي بتجهيز الجيش بلغ رسول الله أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن الغزو ويتعللون لهم بالحر وشدة العدو وجني الثمار ،فكانوا يحرضوهم بقولهم، لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكا في الحق، وإرجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: {وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ}.

فأرسل إليهم الرسول طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة.

وآخرون بحثوا عن الأعذار ليتخلفوا منهم الجد، إذ عندما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسؤال للجد بن قيس قائلا: يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: قد أذنت لك . ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: {وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ * أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ}.

ورغم تنافس المسلمون بالإنفاق لتجهيز جيش العسرة إلا أن النفقة قد قصرت عن هذا الجيش الكبير والذي لم يخرج المسلمون في مثله حيث بلغ تعداده ثلاثين ألفًا، هذا غير الذين تخلفوا عن هذه الغزوة والذين لم يجدوا ما ينفقونه، ولم يكن عند رسول الله ما يعطيهم وهم البكاءون الذين ورد ذكرهم في القرآن، وتَجهز جيش المسلمين واستعمل الرسول على المدينة محمد بن مسلمة، وقيل: سباع بن عرفطة وخلف على أهله علي بن أبي طالب وخرج المسلمون في ثلاثين ألفًا ولم يتخلف عن هذه الغزوة إلا أناس على أربعة أقسام:

مأمورون مأجورون كمحمد بن مسلمة الذي استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة، وعلي بن أبي طالب الذي خلفه رسول الله على أهله.

- معذورون وهم الضعفاء والمرضى والمقلون وهم البكاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد أخو بن حارثة، وأبو ليلى عبدالرحمن بن كعب، وأخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن حمام بن الجموح، أخو بني سلمة، عبدالله بن المغفل المزني، - وبعض الناس يقول: بل هو عبدالله بن عمرو المزني - وهرمي بن عبدالله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه. فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

- عصاة مذنبون تاب الله عليهم أبطأت بهم النية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى تخلفوا عنه عن غير شك ولا ارتياب؛ منهم كعب بن مالك بن أبي كعب، أخو بني سلمة، ومرارة بن الربيع، أخو بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية، أخو بن واقف، وأبو خيثمة، أخو بني سالم بن عوف، وكانوا نفر صدق، لا يتهمون في إسلامهم.

- ملومون مذمومون وهم المنافقون، وعلى رأسهم ابن سلول وقد خرج بالفعل للغزوة حيث ضرب رسول الله عسكره على ثنية الوداع، و ضرب عبدالله ابن أبي معه على حدة عسكره أسفل منه نحو ذباب، ولم يكن جيشه بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبدالله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، ثم أخذ يثبط الناس عن القتال قائلا: " يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا قبل به أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب ؟ "ثم أضاف "والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين في الحبال ونافق معه من هم على رأيه، ولم يكتفوا بترك الجهاد في سبيل الله والتخلف عن رسوله، بل سعوا جاهدين للوقيعة بين رسول الله وصحابته الكرام، فقد ظنوا أن الظروف مواتية لبث الخلاف بين الرسول وصحابته، إذ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، إلى أهله وأمره بالإقامة فيهم فهو ابن عمه وزج ابنته وحبيبة قلبه، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالا له، وتخففا منه، فلما قال ذلك المنافقون: أخذ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه سلاحه، ثم خرج حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني، وتخففت مني؛ فقال: كذبوا. ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن

تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي، فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم يقود هذا الجيش الكبير وكان ذلك يوم الخميس غرة شهر رجب سنة 9هـ طالبًا تبوك وكان الثلاثة والأربعة والأكثر من ذلك يتعاقبون البعير الواحد مما جعل هذه المسافة تقطع في أكثر من المعتاد.

كانت مسيرة الجيش شاقة جدًّا فالعدو بعيد والحر شديد، وكاد العطش أن يقتلهم حتى إن الرجل لينحر بعيره فيشرب ما في كرشه، فإن لم يجد فيعصر فركه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله إن الله تعالى قد عودك في الدعاء خيرًا فادع الله لنا، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أتحب ذلك؟" قال نعم فرفع الرسول يده فلم يرجعهما حتى نزل المطر عليهم فسقوا وارتووا، ثم أشار عليه عمر فقال: يا رسول الله لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله عليها فجاء الناس بأزوادهم، فبارك عليها الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ملأ الزاد والطعام كل المعسكر.

معجزات وبركات تنزلت على المسلمين خلال هذه الغزوة فهل يقنع المنافقون بنبوة الرسول ويحسن إيمانهم ؟ لا بل ظلوا كما هم تفوح كلماتهم بما تخفي صدورهم من كره وحقد على رسول الله ودعوته، ومن ذلك أن ضلت ناقة الرسول ببعض الطريق فخرج بعض أصحابه في طلبها فقال أحد المنافقين وهو زيد بن اللصيت: أليس محمد يزعم أنه نبي يخبركم خبر السماء وهو لا يدري أمر ناقته، فلما علم النبي ذلك عن طريق الوحي قال: "إني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهي في الوادي قد حبستها الشجرة بزمامها فانطلقوا فجاءوا بها".

كذلك أثناء السير مر الجيش الإسلامي على حجر ثمود فنزل الجيش عندها فاستقى الناس من بئرها وطبخوا منه وعجنوا عجينهم، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تشربوا من مياهها ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً" ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له. ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعير له، فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه؛ وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيئ.فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي أصيب على مذهبه فشفي، وأما الآخر الذي وقع بجبلي طيئ، فإن طيئا أهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة.

وقبل الوصول إلى تبوك أخبرهم الرسول بأنهم يأتون تبوك من يوم غد وأمرهم أن من سبق إليها لا يمس من بئر تبوك شيئًا فلما جاءوها سبق رجلان من المنافقين إليها وأخذا من ماء البئرغير مبالين بأمر رسول الله، وهل يخضع منافق لأمر الرسول الكريم ويطيع ؟!، فلما علم النبي دعا عليهما وسبهما ثم غسل الرسول فيها وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس كلهم ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ: "يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جفانا" وقد كان.

نزل رسول الله والمسلمون تبوك فمكثوا فيها عشرين ليلة تقريبًا ينتظرون عدوهم، فلم يأتهم أحد من الروم الذين ألقى الله في قلوبهم الرعب الشديد فقرروا عدم مواجهة المسلمين وتفرقت جيوشهم داخل بلادهم، وعندها أدرك المتحالفون معهم أن أسيادهم القدامى تبددت قوتهم وانتهت أيامهم، فأقبلوا على مصالحة المسلمين، وتوالت وفودهم فجاء "يحنة بن رؤبة" صاحب مدينة إيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وكذلك أهل حرباء وأذرح وتم أسر ملك دومة الجندل 'أكيدر دومة' ودفع الجزية، وكانت الفترة التي قضاها المسلمون في تبوك لتثبيت أقدامهم في المنطقة والإعلان عن ميلاد قوة عالمية جديدة يخشاها الروم أقوى جيوش الأرض وقتها، ما يعني أن على الجميع أن يحسب لها حسابا، وبذلك قرر الرسول الرجوع.

إذا بعد أن تم للرسول ما أراد من تثبيت أركان هيبة الدعوة الإسلامية في تلك البلاد، قرر الرجوع إلى المدينة وأثناء رحلة الرجوع حدثت واقعة عظيمة، بل لنقل كارثة لو تمت لتغير تاريخ الأمة الإسلامية بأسرها لولا فضل الله على المسلمين والناس أجمعين، كان المنافقون قد تخلفوا عن الغزوة الواحد تلو الآخر ولكن بقت مجموعة منهم لتنفيذ خطتهم الخبيثة للقضاء على الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث حاولت هذه المجموعة من المنافقين والمكونة من اثنا عشر رجلاً من أئمة النفاق قتل النبي، وذلك أن مناديًا من قبل الرسول نادى في الناس أثناء السير: "أن خذوا بطن الوادي فهو أوسع عليكم فإن رسول الله قد أخذ ثنية العقبة"، وكان مع النبي حذيفة وعمار يقودان ناقته، فهجمت مجموعة من المنافقين من الخلف وهي تريد

طرح الرسول من على ناقته ثم الفتك به، فغضب الرسول وأمر حذيفة أن يردهم فاستدار حذيفة كالأسد وتصدى وحده للاثني عشر منافقا وضرب وجه رواحل المنافقين، ففروا جميعًا هاربين ودخلوا مع عامة الجيش وعرفهم النبي وصرح بأسمائهم لحذيفة، ولما علم الصحابة بما جرى قالوا للنبي: "يا رسول الله أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ فقال: "لا أكره أن تحدث العرب بينها أن محمدًا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم".

وكذلك قال: أسيد بن الحضير عندما علم بمكيدة المنافقين يا رسول الله مُرْ كلّ بطن أن يقتل الرجل الذي همّ بهذا فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت والذي بعثكَ بالحق فنبِّئني بهم فلا تبرح حتى آتيك برؤوسهم... حتى متى نُداهِنُهم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "إني أكره أن يقول الناس: إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه"

مؤكدا رفضه لأمر قتلهم فسمعة الإسلام أعلى وأهم.

واصل رسول الله رحلة العودة وواصل المنافقون بث ونشر سمومهم فقال أحد المنافقين لرفقائه في السفر: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أكذبنا ألسنة وأرغبنا بطونا وأجبننا عند اللقاء، فوافقه منافق مثله وقال آخر وكان مؤمنًا: إني أخشى أن ينزل فينا قرآنًا، وبالفعل أطلع الله عز وجل رسوله على الأمر عن طريق الوحي ونزل فيهم القرآن وجاء المنافق يعتذر للنبي وقد تعلق برحل ناقة النبي يرجوه المغفرة والعذر، ورسول الله لا يلتفت إليه، ويقول له: {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، والمنافق يقول له: يا رسول الله، إنما لقطع الطريق كنا نخوض ونلعب.

وقبل أن يدخل النبي المدينة أرسل اثنين من الصحابة وهما مالك بن الدخشم ومعن بن عدي ليحرقا المسجد الذي بناه المنافقون ليكون وكرًا للتآمر والكيد بالإسلام والمسلمين، وهو ما يعرف في السيرة باسم مسجد الضرار فما قصة هذا المسجد؟

مسجد ضرار

وردت قصة مسجد الضرار في القرآن الكريم، في سورة التوبة، الآية/107-108، حيث يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}.

وقصة هذا المسجد أن أبا عامر الفاسق وكان راهبًا من أهل المدينة على دين النصرانية، وكان يعلم أن هذا الزمان زمان نبي فترهب وتنسك أملاً أن يكون هو النبي، ولما خاب ظنه وظهر دين الإسلام وجاء النبي للمدينة ودعاه للإسلام لم يقبل رغم علمه بصدق النبي، ولم يجد أمامه سوى الخروج من المدينة أملا في الوصول إلى من يدعمه ويساعده في القضاء على دعوة الإسلام وقائدها، فاتجه أولا إلى مكة ولحق بقريش مع خمسين من أتباعه وأخذ يحرض قريش على القتال ومعاداة الإسلام مدعيا أنهم على الحق فنعته الرسول على ذلك بالفاسق، وشارك في غزوة أحد مع المشركين وحاول الاستعانة بقبيلته الأوس قائلا لهم: يا معشر الأوس أنا أبو عامر فقالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي من بعدي شر، ثم قاتلهم قتالا عنيفا لكن قريشا أهملته فلا فائدة ترجى منه وقد خسر مكانته وسلطته بين قومه، فلم يجد أمامه سوى التوجه ليهود خيبر واستقر بها مدة من الزمن تعاون فيها مع اليهود في التحريض والأعداد لغزوة الأحزاب، ففتح المسلمون خيبر بعد ذلك فلم يجد أمامه سوى تجاوز القبائل العربية والتوجه لهرقل طالبا منه العون والنصرة لقتال المسلمين ومكث عنده فترة وأخذ يراسل المنافقين في المدينة يعدهم ويمنيهم بالنصر والقضاء على الإسلام وأنصاره وأن تصير أمور المدينة بأيديهم، وأمرهم بأن يبنوا مسجدًا على غرار مسجد قباء ليكون مقرا للخطط التي ستحاك ضد الإسلام ووكرا للمؤامرات ونشر الفتن وإثارة الشبهات على الإسلام والمسلمين. فقد طلب من اتباعه البقاء في المدينة ومحاربة الإسلام من الداخل فكيف يكون ذلك دون أن يكون لهم مكانا آمنا للاجتماع بعيدا عن أعين المسلمين خاصة إذا حضر الاجتماع أبو عامر الذي كان لا يستطيع دخول مساجد المسلمين، وبالفعل بنوا المسجد وعندما أتموا البناء أخبروا الرسول أنهم بنوا مسجدا لذي العلة

والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وكان ذلك أثناء الاستعداد للخروج لتبوك، ودعوا رسول الله للصلاة فيه حتى يعطوه الصبغة الشرعية والرسمية فلا يستطيع أحد أن ينكرعليهم بعدها الصلاة فيه وترك الصلاة في مسجد رسول الله، وهنا يتضح تطور فكر وتخطيط المنافقون فأصبح لديهم أداءا عاليا ودرجة كبيرة من المكر والخداع نؤسس مسجد نجتمع فيه ونخطط دون أن يلحظنا أحد للقضاء على الإسلام ودون افتضاح أمرنا، كما نطلب من الرسول الصلاة فيه فيكون له مثل ما لمسجد قباء من مكانة فلا ينكر أحد علينا الصلاة فيه، والأهم يكون أداة للتفريق بين جماعة المسلمين حيث يقصد بعض الصالحين هذا المسجد للصلاة دون مسجد قباء، ولكن الله عصم نبيه من الصلاة في هذا المسجد فقال لهم: إني على جَناح سفر، وحال شُغل.. ولو قدمنا إن شاء الله لأتينكم وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك عائدا إلى المدينة حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرارعلى وعد من رسول الله أن يصلي في مسجدهم عند عودته من تبوك، فلما نزل بذي أوان أتاه خبرُ المسجد وحقيقته، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخْشُم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي أخا بني العجلان فقال: (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه). فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدّخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سَعَفا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يَشتدَّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا} إلى آخر الآيات.

ثم دخل النبي والمسلمون المدينة منتصرا فكان على من تخلف عن الخروج أن يأتي رسول الله موضحا سبب تخلفه عن الغزوة، فجاءه المنافقون ليعتذروا عن تخلفهم عن الغزوة وحلفوا له كذبًا فقبل رسول الله علانيتهم ووكل سريرتهم لله، وجاءه الثلاثة الذين خلفوا وكان من أمرهم ما كان، ورأى النبي أبا لبابة وأصحابه وقد قيدوا أنفسهم في سواري المسجد وقد حلفوا ألا يفكوا أنفسهم حتى يتوب الله عليهم فتركهم حتى قبل الله توبتهم.

انتهت الغزوة وأنزل الله فيها سورة كاملة في القرآن هي سورة التوبة أو الفاضحة تقص علينا نفسية المنافقين وكيفية التعامل معهم وتفضح أساليبهم وكيدهم

وأهدافهم الخبيثة، وكانت هذه الغزوة بحق خاتمة الغزوات النبوية، والفاضحة للنفاق وأهله.

المنافقون والقرآن

مع قوة الإسلام وبدأ سيطرته على المدينة، والاستعداد لنشر نفوذه على القبائل العربية ومن ثم العالم أجمع، وسعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه مهاجرين وأنصار اتخاذ الخطوات لنشر الإسلام وبسط سيطرته، كانت فئة بينهم تسعى ليس فقط لعرقلة هذا السعي بل القضاء على الدين والتخلص من الرسول الكريم والوقيعة بين أتباعه وتثبيطهم وإثارة الشك في قلوبهم، مرتدية لباس الإسلام بما يسهل عليها مهمتها أو هكذا تظن، لكن الله العليم الخبير كان لهم بالمرصاد، فمع بداية ظهورهم نزلت الآيات القرآنية تخبر بوجودهم، وسبب تلك الحالة المرضية التي هم عليها، وصفاتهم، والأهم تحذر منهم في العديد من المواضع، ما يجعل من المفيد عرض بعض ما جاء عنهم في القرآن الكريم.

فنجد أنه ولشدة خطورة هذه الفئة فإنَّ الله تعالى حذر من النفاق وأهله في أول سورة بعد فاتحة الكتاب، وخصَّ سورة المنافقين في ذكرهم، وحذر منهم في مواطن كثيرة، حتى كانت سورة التوبة أو الفاضحة، وهي بحق فاضحة للنفاق وأهله، هذا إن دل على شيء يدل على عظم خطرهم وصعوبة التعرف عليهم والتعرف على نواياهم وأهدافهم الخبيثة دون إرشاد ممن يعلم سرائر وخفايا العباد، فليس كل من يدع الإسلام مسلم وليس كل من يدع الصلاح مصلح.

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد حذر من صفاتهم وأن يتصف المسلم الحق بأي منها، ومن اتصف بصفة منها عليه أن يدعها حتى ينجو، كما توعدهم وهجرهم، وعهد إلى حذيفة بن اليمان أمين سره رضي الله عنه بأسمائهم فكان لا يصلي على من مات منهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وياله من أمر عظيم إذا كان هذا هو السبب من إطلاع النبي لحذيفة على اسمائهم لو كان لهؤلاء قلب أوعقل.

ومؤكد أن كل هذا التحذير من المنافقين أن المسلم يلقى الكافر فيأخذ حذره منه وينصب له العداء ويتقيه ويتقي شره فهو على يقين من عداوته، لكن يلقى المنافق

فيصافحه ويصاحبه ويشاركه فرحه وحزنه، وهو لا يعلم أنَّه منافق مبغض يضمر له العداء، ويدعي المحبة بالاسم، فكم من فتنةٍ كانوا هم سببها، وكم من بلية حاكتها أيديهم، كم من عدوٍ تحالفوا معه سرا، وادعوا إخوة أهل الإسلام علنا، كم حصون انهدمت، وبلد خربت، وأعراض انتهكت، ومقدسات دنست، ودماء سالت بسبب هؤلاء المنافقين.

وقد نعتهم الإمام ابن القيم نعتاً بليغاً، ووصفهم وصفاً دقيقاً فقال فيهم: "قد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلى لعباده أمورهم، ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟! وكم من علم له قد طمسوه؟! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها؟! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبليَّة، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8].

اتفقوا على مفارقة الوحي، فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53]، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112] ولأجل ذلك ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30].

درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحبونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها، لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأسا، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا، خلعوا

نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام، فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام، وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز، وقالوا: ما لك عندنا من عبور وإن كان لا بد فعلى سبيل الاجتياز، أعدوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا لما حلت بساحتهم: ما لنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئا من اليقين، وعوامهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين، فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور، ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هممهم إلى فعل المأمور وترك المحظور، فطريقة المتأخرين أعلم وأحكم، وطريقة السلف الماضين أجهل، لكنها أسلم.

أنزلوا نصوص السنة والقرآن منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه على السكة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع.

لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين، ويقولون ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8].

رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم العقل المعيشي أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9].

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها، ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ [البقرة: 10].

من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حال بين

قلبه وبين التصديق، ففسادهم في الأرض كثير، وأكثر الناس عنه غافلون ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 11 - 12].

المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارا، فهمه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ - أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 13].

لكل منهم وجهان، وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 14].

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاءً بأهلهما واستحقاراً، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحا بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه أشرا واستكبارا، فتراهم أبدا بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزئون ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15].

خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16].

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفئ ذلك النور، وبقيت نار تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر، فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى، فهي لا تبصر حقائق القرآن، وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18].

صاب عليهم صيب الوحي، وفيه حياة القلوب والأرواح، فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وظفت عليهم في المساء والصباح، فجعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وجدوا في الهرب، والطلب في آثارهم والصياح، فنودي عليهم على رءوس الأشهاد، وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين، والمقلدين، فقيل ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 19].

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه، وعجزت أسماعهم عن تلقي رعود وعوده وأوامره ونواهيه، فقاموا عند ذلك حيارى في أودية التيه، لا ينتفع بسمعه السامع، ولا يهتدي ببصره البصير، ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 20].

كاد نور القرآن لشدة ضوئه يعمي بصائرهم، كما أن البرق الخاطف الشديد النور يكاد يخطف بصر ناظره، ولا سيما إذا كان البصر ضعيفا؛ لأن البصر كلما كان أضعف كان النور أشد إذهابا له. ثم قال وبصائر الكفار والمنافقين في غاية الضعف. فشدة ضوء النور تزيدها عمى

وقال بعض العلماء: يكاد البرق يخطف أبصارهم؛ أي: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين.

كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا أي: إذا أنعم الله عليهم بالمال والعافية قالوا: هذا الدين حق، ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا أي: وإن أصابهم فقر أو مرض أو ولدت لهم البنات دون الذكور قالوا: ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذا الدين وارتدوا عنه

لو شاء الله لأطلعَ المؤمنين عليهم فذهب منهم عز الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم. إن الله على كل شيء قدير ومن قدرته أنه إذا شاء شيئًا فعله من غير ممانع ولا معارض.

وهكذا نرى كيف قادت الآيات القرآنية الإمام ابن القيم لرسم صورة واضحة للمنافقين وهي صورة ثابتة على مر الزمان، والمتابع لآيات القرآن يستطيع التعرف

أكثر على المنافقين وتحديد صفاتهم وكشف سلوكياتهم التي حرص القرآن على تناولها والتأكيد عليها حتى يتم الحذر منهم وعدم التأثر بأقوالهم وأفكارهم التي لا هدف لها سوى القضاء على الإسلام والمسلمين، كان من أهم ما نزل في المنافقين، سورة المنافقين، وسورة براءة أو الفاضحة التي عرت المنافقين لدرجة كادت أن تشير صراحة للمنافقين في مدينة رسول الله، ما يجعل عرض سورة المنافقين وما يتعلق بالمنافقين من سورة براءة ضرورة لكل مسلم.

عرض وتفسير سورة المنافقين

وهي مدنية، وعن أبو هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين. وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين.

الآية: 1

{إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّهِ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: إِذَا جاءَكَ المُنافِقُونَ يا محمد قالُوا بألسنتهم نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّهِ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ قال المنافقون ذلك أو لم يقولوا، وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنافقينَ لَكَاذِبُونَ في إخبارهم عن أنفسهم أنها تشهد إنك لرسول الله، وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به، فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك.

وكان بعض أهل العربية يقول في قوله: وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنافقينَ لَكَاذِبُونَ إنما كذب ضميرهم لأنهم أضمروا النفاق، فكما لم يقبل إيمانهم، وقد أظهروه، فكذلك جعلهم كاذبين، لأنهم أضمروا غير ما أظهروا.

الآية: 2

{اتَّخَذُوَاْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}

يقول الله تعالى: اتخذ هؤلاء المنافقون حلفهم جنة ووقاية من الناس، إذ الجُنّةَ تعني سترة يستترون بها كما يستتر المستجنّ بجنته في حرب وقتال، فيمنعون بها أنفسهم وذراريهم وأموالهم، ويدفعون بها عنها. فَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ أي فأعرضوا عن دين الله الذي بَعَثَ به نبيه صلى الله عليه وسلم وشريعته التي شرعها لخلقه

إنّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ في اتخاذهم أيمانهم جُنة، لكذبهم ونفاقهم، فهم يجعلون الحلف والأيمان الكاذبة سترا يستر كذبهم ونفاقهم، فيغتر بتلك الإيمان الكاذبة بعض من لا يعرف حقيقتهم فيصدقهم ويقتدي بهم فيصدوه عن دينه، وتلك هي الطامة.

الآية: 3

{ذَلِكَ بِأَنّهُمْ آمَنُواْ ثُمّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىَ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ}

قدر الله على هؤلاء المنافقين الذين صدّقوا الله ورسوله، ثم كفروا بشكهم في ذلك وتكذيبهم به. أن طُبِع عَلى قُلُوبِهِمْ أي جعل الله على قلوبهم خَتما بالكفر عن الإيمان فَهُمْ لا يفقهون صوابا من خطأ، أوحقا من باطل لطبع الله على قلوبهم. والسبب في طبع قلوبهم أنهم أقرّوا بلا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقلوبهم منكِرة تأبى ذلك.

وأصلُ الختم: الطَّبْع. والخاتَم هو الطَّابع. يقال منه: ختمتُ الكتابَ، إذا طبَعْتَه. و الختمُ طبعٌ على الأوعية والظروف والغلف ؟

وقلوبَ العباد أوعيةٌ لما أُودِعت من العلوم، وظروفٌ لما جُعل فيها من المعارف بالأمور، فيكون المعنى طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يعون ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

الآية: 4

{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنّهُمْ خُشُبٌ مّسَنّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنّى يُؤْفَكُونَ}

يقول جلّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإذا رأيت هؤلاء المنافقين يا محمد تعجبك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن صورها، وإن يتكلموا تسمع كلامهم يشبه منطقهم منطق الناس، فأشكالهم حسنة وألسنتهم فصيحة، لكن هم في حقيقة الأمر كأنّهُمْ خُشُبٌ مُسَنّدَةٌ لا خيرعندهم ولا فقه لهم ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول.

يَحْسَبُونَ كُلّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ يحسب هؤلاء المنافقون من خُبثهم وسوء ظنهم، وقلة يقينهم كلّ صيحة عليهم، لأنهم على وَجَل أن يُنْزل الله فيهم أمرا يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم وسبي ذراريهم، وأخذ أموالهم، فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسوله، ظنوا أنه نزل بهلاكهم

وعَطَبهم. لذا يقول الله جلّ ثناؤه: هم العدوّ يا محمد فاحذرهم، فإن ألسنتهم إذا لَقُوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عين لأعدائكم عليكم. قَاتَلَهُمُ اللّهُ أنّى يُوءْفَكُونَ أخزاهم الله إلى أيّ وجه يصرفون عن الحقّ.

الآية: 5

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللّهِ لَوّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدّونَ وَهُم مّسْتَكْبِرُونَ}

يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم لوّوا رؤوسهم، أي حرّكوها وهزّوها استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وباستغفاره. وأعرضوا بوجوههم عما دُعوا إليه فهم مستكبرون عن المصير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم، وقيل المقصود بهذه الآيات كلها فيما ذُكرعبدُ الله بن أُبيّ ابن سَلُول، بعد أن قال لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا، وقال: لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الأعَزّ مِنْها الأذَلّ فسمع بذلك زيد بن أرقم، فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله عما أخبر به عنه، فحلف أنه ما قاله، وقيل له: لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألته أن يستغفر لك، فجعل يلوي رأسه ويحرّكه استهزاء، ويعني ذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه هذه السورة من أوّلها إلى آخرها.

الآية: 6

{سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ إِنّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَـسِقِينَ}

يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: سواء يا محمد أستَغْفَرْتَ لهؤلاء المنافقين ذنوبهم أمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ، لن يصفح الله لهم عن ذنوبهم، بل يعاقبهم عليها إنّ اللّهِ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ، فالله لا يوفّق للإيمان القوم الكاذبين عليه، الكافرين به، الخارجين عن طاعته.

الآية: 7

{هُمُ الّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَىَ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللّهِ حَتّىَ يَنفَضّواْ وَلِلّهِ خَزَآئِنُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَلَـكِنّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ}

يقول تعالى ذكره: هُمُ الّذِينَ يقولون لأصحابهم لا تُنْفِقُوا عَلى أصحاب رسول الله حتى يَنْفَضّوا ويتفرّقوا عنه. والحقيقة أن جميع ما في السموات والأرض من شيء لله، وبيده مفاتيح خزائن ذلك كله، لا يقدرأحد أن يعطي أحدا شيئا إلا بمشيئته وَلَكِنّ المُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ، لذلك يقولون قولهم هذا لا تطعموا محمد وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة، فيتركوا نبيهم وينفضوا من حوله، وهذه أمنية صادقة ورغبة ثابتة في القضاء على الإسلام ورسوله وأصحابه ما أخبثهم ؟!!!.

وهذا قول عبد الله بن أُبي لأصحابه المنافقين لا تنفقوا على محمد وأصحابه حتى يَدَعوه، فإنكم لولا أنكم تنفقون عليهم لتركوه وَأجلوا عنه.

الآية: 8

{يَقُولُونَ لَئِن رّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الأعَزّ مِنْهَا الأذَلّ وَلِلّهِ الْعِزّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـكِنّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}

يقول الله تعالى: يقول هؤلاء المنافقون الذين وصفت صفتهم لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الأعَزّ مِنْها الأذَلّ فيها، ويعني بالأعزّ الأشدّ والأقوى، قال الله جلّ ثناؤه: ولِلّهِ العِزّةُ والشدّة والقوّة وَلِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ بالله وَلَكِنّ المُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ذلك.

وذُكر أن سبب قول عبدُ الله بن أُبي ذلك كان من أجل أن رجلاً من المهاجرين كَسَعَ رجلا من الأنصار.

فعن جابر بن عبد الله، قال: إن الأنصار كانوا أكثر من المهاجرين، ثم إن المهاجرين كثروا فخرجوا في غزوة لهم، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، قال: فكان بينهما قتال إلى أن صرخ: يا معشر الأنصار، وصرخ المهاجر: يا معشر المهاجرين قال: فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: «ما لَكُمْ وَلِدعْوَةِ الجاهِلِيّةِ»؟ فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دَعُوها فإنّها مُنْتِنَةٌ»، قال: فقال عبد الله بن أُبي ابن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، فقال عمر: يا رسول الله دعني فأقتله، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَتَحَدّثُ النّاسُ أنّ رَسُولَ اللّهِ يَقْتُلُ أصْحَابَهُ».

وعن عكرمة أن عبد الله بن عبد الله بن أُبي ابن سلول كان يقال له حباب، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، فقال: يا رسول الله إن والدي يؤذي الله

ورسوله، فذرني حتى أقتله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تَقْتُلْ أباكَ عَبْدَ اللّهِ»، ثم جاء أيضا فقال: يا رسول الله إن والدي يؤذي الله ورسوله، فذرني حتى أقتله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تَقْتُلْ أباكَ»، فقال: يا رسول الله فتوضأ حتى أسقيه من وضوئك لعلّ قلبه أن يلين، فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه، فذهب به إلى أبيه فسقاه، ثم قال له: هل تدري ما سقيتك؟ فقال له والده نعم، سقيتني بول أمك، فقال له ابنه: لا والله، ولكن سقيتك وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عكرمة: وكان عبد الله بن أُبي عظيم الشأن فيهم. وفيهم أنزلت هذه الآية في المنافقين: هُمُ الّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ حتى يَنْفَضّوا وهو الذي قال: لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الأعَزّ مِنْها الأذَلّ قال: فلما بلغوا المدينة، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، أخذ ابنه السيف، ثم قال لوالده: أنت تزعم «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ»، فوالله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية أخرى عن قتادة، قال: اقتتل رجلان، أحدهما من جُهينة، والآخر من غفار، وكانت جهينة حليف الأنصار، فظهر عليه الغفاريّ، فقال رجل منهم عظيم النفاق: عليكم صاحبكم، عليكم صاحبكم، فوالله ما مَثُلنا ومَثَل محمد إلا كما قال القائل: «سمّن كلبك يأكلك»، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ وهم في سفر، فجاء رجل ممن سمعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأخبره ذلك، فقال عمر: مُر معاذا يضرب عنقه، فقال: «وَاللّه لا يَتَحَدّثُ النّاسُ أنّ مُحَمّدا يَقْتُلُ أصحَابَهُ»، فنزلت فيهم: هُمُ الّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا على مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ.

وقوله: لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الأعَزّ مِنْها الأذَلّ:

فعن الحسن أن غلاما جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إني سمعت عبد الله بن أُبي يقول كذا وكذا قال: «فَلَعَلّكَ غَضِبْتَ عَلَيْهِ؟» قال: لا والله لقد سمعته يقوله قال: «فَلَعَلّكَ أخْطأَ سَمْعُكَ؟» قال: لا والله يا نبيّ الله لقد سمعته يقوله قال: فَلَعَلّهُ شُبّهَ عَلَيْكَ»، قال: لا والله، قال: فأنزل الله تصديقا للغلام: لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الأعَزّ مِنْها الأذَلّ، فأخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم بأذن الغلام، فقال: «وَفَتْ أُذُنُكَ، وَفَتْ أُذُنُكَ يا غُلامُ». ادْعُوا لي عَبْدَ اللّهِ بْنَ عَبْدِ اللّهِ بْن أُبي»، فدعاه، فقال: «ألا تَرَى ما يَقُولُ أبُوكَ؟» قال: وما يقول بأبي أنت وأمي؟ قال: «يَقُولُ لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الأعَزّ مِنْها الأذَلّ» فقال: فقد صدق والله يا

رسول الله، أنت والله الأعزّ وهو الأذلّ، أما والله لقد قَدِمت المدينة يا رسول الله، وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبرّ مني بأبيه، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتِيَنّها به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا» فلما قَدِموا المدينة، قام عبد الله بن عبد الله بن أُبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، أما والله لتعرفنّ العزّة لك أو لرسول الله، والله لا يأويك ظله، ولا تأويه أبدا إلا بإذن من الله ورسوله فقال: يا للخزرج ابني يمنعني بيتي يا للخزرج ابني يمنعني بيتي فقال: والله لا تأويه أبدا إلا بإذن منه فاجتمع إليه رجال فكلموه، فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله، فأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال: «اذْهَبُوا إلَيْهِ، فَقُولُوا له خَلّهِ ومَسْكَنَه» فأتوه، فقال: أما إذا جاء إمر النبيّ صلى الله عليه وسلم فنعم.

الآية: 9

{يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

يقول الله تعالى: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله لا توجب لكم أموالكم وَلا أوْلادُكُمْ اللهوعَنْ ذِكْرِ اللّهِ، وقيل عُنِي بذكر الله جلّ ثناؤه في هذا الموضع الصلوات الخمس. وقوله: وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ ومن يلهه ماله وأولاده عن ذكر الله فأُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ هم المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته تبارك وتعالى.

الآية: 10-11 {وَأَنفِقُواْ مِن مّا رَزَقْنَاكُمْ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبّ لَوْلاَ أَخّرْتَنِيَ إِلَىَ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصّدّقَ وَأَكُن مّنَ الصّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخّرَ اللّهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

يقول الله تعالى: وأنفقوا أيها المؤمنون بالله ورسوله من الأموال التي رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول إذا نزل به الموت يا ربّ هلا أخرتني فتُمْهِلَ لي في الأجل إلى أجل قريب. فأصدّق وأزكي مالي وأكُنْ مِنَ الصّالِحِينَ وأعمل بطاعتك، وأؤدّي فرائضك.

وقيل عنى بقوله وَأكُنْ مِنَ الصالِحِينَ وأحجّ بيتك الحرام.

فعن ابن عباس، قال: ما من أحد يموت ولم يؤدّ زكاة ماله ولم يحجّ إلا سأل الكرّة، فقالوا: يا أبا عباس لا تزال تأتينا بالشيء لا نعرفه قال: فأنا أقرأ عليكم في كتاب الله:

وأنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يأْتِيَ أحَدَكُمْ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبّ لَوْلا أخّرْتَنِي إلى أجَلٍ قَرِيبٍ فأصّدّقَ قال: أؤدي زكاة مالي وأكُنْ مِنَ الصّالِحِينَ قال: أحجّ.

وقوله: وَلَنْ يُوءَخّرَ اللّهُ نَفْسا إذَا جاءَ أجَلُها أي لن يؤخر الله في أجل أحد فيمدّ له فيه إذا حضر أجله، وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ والله ذو خبرة وعلم بأعمال عبيده فهو بجميعها محيط، لا يخفى عليه شيء، وهو مجازيهم بها، المحسنَ بإحسانه، والمسيء بإساءته.

عرض آيات المنافقين في سورة براءة

سورة براءة أو التوبة لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي مدنية نزلت بعد فتح مكة تدور معظم آياتها عن المنافقين وأوصافهم وأفعالهم، لها أسماء عديدة منها الفاضحة لأنه ما زال ينزل فيها ومنهم ومنهم حتى كادت ألا تدع أحدا، وسميت كذلك البحوث لأنها تبحث عن أسرار المنافقين، وتسمى المبعثرة والمثيرة لأنها تثير أسرارهم، والحافرة والمنكلة لأنها تنكل بالمنافقين، والفاضحة لأنها تفضحهم. وهي السورة الوحيدة في القرآن التي لا تبدأ بالبسملة لأنها نزلت بالسيف.

وتبدأ بالبراءة من المشركين والأمر بنبذ عهدهم بعد وقوع النقض منهم، فيقول الله سبحانه وتعالى:

الآية: 1، 2

{بَرَآءَةٌ مّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الّذِينَ عَاهَدْتُمْ مّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِي الأرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوَاْ أَنّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ}

أي هذه براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين بعد وقوع النقض منهم، والعهود بين المسلمين والمشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يتولى عقدها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من يعقدها بأمره، ولكنه خاطب المؤمنين بذلك لعلمهم بمعناه، وأن عقود النبيّ صلى الله عليه وسلم على أمته كانت عقودهم، لأنهم كانوا لكل أفعاله فيهم راضين، ولعقوده عليهم مسلمين، فصار عقده عليهم كعقودهم على أنفسهم، فلذلك قال: إلى الّذِينَ عاهَدْتُم مِنَ المُشْرِكِينَ لما كان من عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده.

وقد اختلف أهل التأويل فيمن برىء الله ورسوله منهم، فقال بعضهم: هم صنفان من المشركين: أحدهما: كانت مدة العهد بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أقلّ من أربعة أشهر، وأمهل بالسياحة أربعة أشهر، والآخر منهما كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقصر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه، ثم هو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيثما أدرك ويؤسر إلا أن يتوب.فعن ابن إسحاق، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه أميرا على الحجّ من سنة تسع ليقيم للناس حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم. فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين، ونزلت سورة براءة في نقض ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم: أن لا يصدّ عن البيت أحد جاءه، وأن لا يخاف أحد في الشهر الحرام. وكان ذلك عهدا عامّا بينه وبين الناس من أهل الشرك، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل من العرب خصائص إلى أجل مسمى، فنزلت فيهم وفيمن تخلف عنه من المنافقين في تبوك، فكشف الله فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون، منهم من سمي لنا، ومنهم من لم يسمّ لنا، فقال: بَرَاءَةٌ مِنَ اللّهِ وَرَسولِهِ إلى الّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ أي لأهل العهد العام من أهل الشرك من العرب، فَسِيحُوا فِي الأرْضِ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ... إلى قوله: أنّ اللّهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ أي بعد هذه الحجة.

وقال آخرون: بل كان إمهال الله عزّ وجلّ بسياحة أربعة أشهر من كان من المشركين بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، فأما من لم يكن له من رسول الله عهد فإنما كان أجله خمسين ليلة، وذلك عشرون من ذي الحجة والمحرّم كله. لأن أجل الذين لا عهد لهم كان إلى انسلاخ الأشهر الحرم، كما قال الله: فإذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الحُرُمُ فاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ... الآية، قالوا: والنداء ببراءة كان يوم الحجّ الأكبر، وذلك يوم النحر في قول قوم وفي قول آخرين: يوم عرفة، وذلك خمسون يوما. قالوا: وأما تأجيل الأشهر الأربعة، فإنما كان لأهل العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من يوم نزلت براءة. قالوا: ونزلت في أوّل شوّال، فكان انقضاء مدة أجلهم انسلاخ الأشهر الحرم. وقد كان بعض من يقول هذه المقالة يقول: ابتداء التأجيل كان للفريقين واحدا، أعني الذي له العهد والذي لا عهد له غير أن أجل الذي

كان له عهد كان أربعة أشهر، والذي لا عهد له: انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك انقضاء المحرّم.

وعن أبي جعفر محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ، قال: لما نزلت براءة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليقيم الحجّ للناس قيل له: يا رسول الله لو بعثت إلى أبي بكر فقال: «لا يُؤَدّي عَنّي إلاّ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ بَيْتِي» ثم دعا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «اخْرُجْ بِهَذِهِ القِصّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةَ، وأذّن في النّاسِ يَوْمَ النّحْرِ إذَا اجْتَمَعُوا بِمِنًى: أنّه لا يَدْخُلُ الجَنّة كافِرٌ، ولاَ يَحُجّ بَعْدَ العامِ مُشْرِكٌ، ولاَ يَطُفْ بالبَيْتِ عُرْيانٌ، وَمَنْ كانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم عَهْدٌ فَهُوَ إلى مُدّتِهِ» فخرج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء، حتى أدرك أبا بكر الصديق بالطريق فلما رآه أبو بكر، قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. ثم مضيا رضي الله عنهما، فأقام أبو بكر للناس الحجّ والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحجّ التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر، قام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فأذّن في الناس بالذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أيها الناس لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو له إلى مدته فلم يحجّ بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

الآية: 3

{وَأَذَانٌ مّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النّاسِ يَوْمَ الْحَجّ الأكْبَرِ أَنّ اللّهَ بَرِيَءٌ مّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لّكُمْ وَإِن تَوَلّيْتُمْ فَاعْلَمُوَاْ أَنّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشّرِ الّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}

يقول تعالى ذكره: وإعلام من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر وهو يوم عرفة وقيل يوم النحر. أن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم كذلك، فإن تبتم أيها المشركون من شرككم فتوبتكم خير لكم، وإن أعرضتم عن التوبة فأيقنوا أنكم لن تفوتوا الله، ولن تفلتوا من عقابه، وأخبر أيها الرسول الذين كفروا بما يسؤوهم وهوعذاب موجع ينتظرهم.

الآية: 38

{يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدّنْيَا مِنَ الاَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدّنْيَا فِي الاَخِرَةِ إِلاّ قَلِيل}

نزلت هذه الآية عتابا لمن تخلف عن غزوة تبوك، وقد حثّ فيها الله جلّ ثناؤه المؤمنين به على غزو الروم والخروج مع رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول جلّ ثناؤه: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ما لكم إذ قيل لكم: اخرجوا غزاة في سبيل الله وجهادا لأعداء الله، تثاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها. أَرَضِيتُمْ بالحَياةِ الدّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ، أرضيتم بحظّ الدنيا والدعة فيها عوضا من نعيم الآخرة وما عند الله للمتقين في جنانه؟ فَمَا مِتَاعُ الحَياةِ الدّنْيَا فِي الآخِرةِ، فما الذي يستمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذّاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي أعدّها الله لأوليائه وأهل طاعته إلاّ قَلِيلٌ يسير. فاطلبوا أيها المؤمنون نعيم الآخرة وترف الكرامة التي عند الله لأوليائه بطاعته، والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوه.

الآية 39

{إِلاّ تَنفِرُواْ يُعَذّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

هذا تهديد شديد، ووعيد مؤكد لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك النفر إلى عدوّهم من الروم فيقول تعالى: إن لم تنفروا أيها المؤمنون إلى رسول الله، يعذّبكم الله عاجلاً في الدنيا عذابا موجعا. ويستبدل الله بكم نبيه قوما غيركم، ينفرون إذا استنفروا، ويجيبونه إذا دعوا، ويطيعون الله ورسوله. ولا تضرّوا الله بترككم النفير ومعصيتكم إياه شيئا، لأنه لا حاجة به إليكم، بل أنتم أهل الحاجة إليه، وهو الغنيّ عنكم وأنتم الفقراء واللّهُ على كُلّ شَيْءٍ قَدِير، قديرعلى إهلاككم واستبدال قوما غيركم. وقد ذكر أن العذاب الأليم في هذا الموضع كان احتباس القطر عنهم.

الآية: 40

{إِلاّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيّدَهُ بِجُنُودٍ لّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الّذِينَ كَفَرُواْ السّفْلَىَ وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيم}

وهذا إعلام من الله لأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكير منه لهم أنه فعل ذلك به، وهو من العدد في قلة والعدوّ في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة والعدوّ في قلّة؟ فقال لهم جلّ ثناؤه: إلا تنفروا أيها المؤمنون مع رسولي إذا استنفركم فتنصروه، فالله ناصره ومعينه على عدوّه ومغنيه عنكم وعن معونتكم ونصرتكم كما نصره إذ أخرجه الذين كفروا بالله من قريش من وطنه وداره ثانِيَ اثْنَيْنِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر، رضي الله عنه، إذ همّوا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم واختفيا في الغار. وقوله: إذْ هُما فِي الغارِ إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رحمة الله عليه في الغار. إذ يقول رسول الله لصاحبه أبي بكر: لا تَحْزَنْ وذلك أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما، فجزع من ذلك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاَ تَحْزَنْ لأنّ اللّهَ مَعَنا، واللّهُ ناصِرُنا، فَلَنِ يَعْلَمَ المُشْرِكُونَ بِنا، وَلَنْ يَصِلُوا إلَيْنَا، فدع الحزن إن الله بنصره وعونه معنا، ومن كان الله معه فلن يغلب، ومن لا يغلب فيحق له ألا يحزن، نصره الله على عدوّه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد، فكيف يخذله ويحوجه إليكم وقد كثر الله أنصاره وعدد جنوده؟.

الآية: 41

{انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}

واختلف أهل التأويل في معنى الخفة والثّقل اللذين أمر الله من كان به أحدهما بالنّفر معه، فقال بعضهم: معنى الخفة التي عناها الله في هذا الموضع: الشباب، ومعنى الثقل: الشيخوخة. والآية أمر عام بالنفير مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك لقتال الروم، وحتم على المؤمنين الخروج على كل حال في المكره والمنشط والعسر واليسر، رجالا وفرسانا، جاهدوا بأموالكم وأنفسكم فإن ذلك هو الخير لكم إن كنتم تعلمون.

فعن حبان بن زيد الشرعبي، قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليا على حمص قِبَلَ الأفسوس إلى الجراجمة، فلقيت شيخا كبيرا هِمّا، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت عليه فقلت: يا عمّ لقد أعذرَ الله إليك قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالاً، من يحبه الله

يبتليه ثم يعيده فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله.

الآية: 42

{لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاّتّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشّقّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنّهُمْ لَكَاذِبُونَ}

يقول جلّ ثناؤه للنبي صلى الله عليه وسلم، وكانت جماعة من أصحابه قد استأذنوه في التخلف عنه حين خرج إلى تبوك فأذن لهم: لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك والمستأذنين في ترك الخروج معك إلى مغزاك الذي استنفرتهم إليه، غنيمة حاضرة، وموضعا قريبا سهلاً، لاتّبعوكَ ونفروا معك إليهما ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفرا شاقّا عليهم، لأنك استنهضتهم في وقت الحرّ وزمان القيظ وحين الحاجة إلى الكنّ. وسيحلف لك يا محمد هؤلاء المستأذنوك في ترك الخروج معك اعتذارا منهم إليك بالباطل، لتقبل منهم عذرهم، وتأذن لهم في التخلف عنك بالله كاذبين: لو استطعنا لخرجنا معكم، فلو أطقنا الخروج معكم بوجود السعة والمراكب والظهور وما لا بدّ للمسافر والغازي منه، وصحة البدن والقوى، لخرجنا معكم إلى عدوّكم. يوجبون لأنفسهم بحلفهم بالله كاذبين الهلاك والعطب، لأنهم يورثونها سخط الله ويكسبونها أليم عقابه. وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنّهُمْ لَكَاذِبُونَ في حلفهم باللّهِ لواستطعنا لخرجنا معكم لأنهم كانوا للخروج مطيقين بوجود السبيل إلى ذلك بالذي كان عندهم من الأموال مما يحتاج إليه الغازي في غزوه والمسافر في سفره وصحة الأبدان وقوى الأجسام.

الآية: 43

{عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتّىَ يَتَبَيّنَ لَكَ الّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}

وهذا عتاب من الله تعالى ذكره عاتب به نبيه صلى الله عليه وسلم في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه حين شخص إلى تبوك لغزو الروم من المنافقين.إذ يقول: عَفَا اللّهُ عَنْكَ يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذي استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك من قبل أن تعلم صدقهم من كذبهم. لأيّ شيء أذنت لهم، فما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك، إذ قالوا لك: لو استطعنا لخرجنا معك، حتى تعرف من له العذر منهم في تخلفه ومن لا عذر له منهم، فيكون

إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره، وتعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقا وشكّا في دين الله. وقال مجاهد: نزلت الآية في قوم قالوا: استأذنوا رسول الله، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

الآية: 44

{لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتّقِينَ}

وهذا إعلام من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بصفات وعلامات المنافقين، أن من علاماتهم التي يُعرفون بها تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله باستئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في تركهم الخروج معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة.قائلا: يا محمد لا تأذنّ في التخلف عنك إذا خرجت لغزو عدوّك لمن استأذنك في التخلف من غير عذر، فإنه لا يستأذنك في ذلك إلا منافق لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فأما الذي يصدّق بالله ويقرّ بوحدانيته وبالبعث والدار الآخرة والثواب والعقاب، فإنه لا يستأذنك في ترك الغزو وجهاد أعداء الله بماله ونفسه. والله ذوعلم بمن خافه فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه والمسارعة إلى طاعته في غزو عدوّه وجهادهم بماله ونفسه، وغير ذلك من أمره ونهيه.

الآية: 45

{إِنّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدّدُونَ}

يقول الله تعالى: ليس من عادة المؤمنين الاستئذان عن الجهاد، إنما يستأذنك في التخلف خلافك، وترك الجهاد معك من غير عذر ظاهر واضح الذين لا يصدّقون بالله، ولا يقرّون بتوحيده. وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ وشكت في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه. فَهُمْ فِي رَيْبِهِمِ وشكهم متحيرون، وفي ظلمة الحيرة مترددون، لا يعرفون حقّا من باطل، فيعملون على بصيرة. وهذه صفة المنافقين.

الآية: 46

{وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدّواْ لَهُ عُدّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ}

أي لو كانوا صادقين فيما يدعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك، لأعدّوا للخروج عدّة، ولتأهبوا للسفر والعدوّ أهبتهما. ولكنهم لم يريدوا الخروج، وكذلك كَرِهَ اللّهُ خروجهم لذلك ثقل عليهم الخروج حتى استخفوا القعود في منازلهم، واستثقلوا السفر والخروج فتركوه. وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القاعِدِينَ اقعدوا مع المرضى والضعفاء الذين لا يجدون ما ينفقون ومع النساء والصبيان، واتركوا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجاهدين في سبيل الله. وكان تثبيط الله إياهم عن الخروج مع رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، لعلمه بنفاقهم، وغشهم للإسلام وأهله، وأنهم لو خرجوا معهم ضرّوهم ولم ينفعوا. وذكر أن الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود كانوا عبد الله بن أبيّ بن سلول، والجد بن قيس، ومن كان على مثل الذي كانا عليه.

الآية: 47

{لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مّا زَادُوكُمْ إِلاّ خَبَالاً ولأوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ}

يقول الله تعالى: لو خرج فيكم هؤلاء المنافقون، لم يزيدوكم بخروجهم فيكم إلا فسادا وضرّا، ولأسرعوا بركائبهم السير بينكم. يطلبون لكم ما تفتنون به عن مخرجكم في مغزاكم، بتثبيطهم إياكم عنه.

فعن ابن إسحاق، قال: كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبيّ ابن سلولَ والجدّ بن قيس، وكانوا أشرافا في قومهم، فثبطهم الله لعلمه بهم وأنهم يخرجوا معهم فيفسدوا على رسول الله جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، فقال: وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ أي وفيكم أهل سمع وطاعة منكم لو صحبوكم أفسدوهم عليكم بتثبيطهم إياهم عن السير معكم.

وقيل بل المقصود وفيكم منهم سماعون يسمعون حديثكم لهم، فيبلغونهم ويؤدونه إليهم فهم عيون لهم عليكم.

وأما قوله: وَاللّهُ عَلِيمٌ بالظّالِمِينَ فإن معناه: والله ذوعلم بمن يوجه أفعاله إلى غير وجوهها ويضعها في غير مواضعها، ومن يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعذر ومن يستأذنه شكّا في الإسلام ونفاقا، ومن يسمع حديث المؤمنين ليخبر به

المنافقين ومن يسمعه ليسرّ بما سرّ المؤمنين ويساء بما ساءهم، لا يخفى عليه شيء من سرائر خلقه وعلانيتهم.

الآية: 48

{لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّىَ جَآءَ الْحَقّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ}

يقول الله تعالى: لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك يا محمد، التمسوا صدّهم عن دينهم، وتفريق كلمتهم، وحرصوا على ردّهم إلى الكفر بالتخذيل عنه، كفعل عبد الله بن أبيّ بك وبأصحابك يوم أُحد حين انصرف عنك بمن تبعه من قومه، وذلك كان ابتغاءهم. ودبروا الحيل والمكائد، وجالوا فيك وفي إبطال الدين الذي بعثك به الله الرأي بالتخذيل عنك، وإنكار ما تأتيهم به، وردّه عليك. حتى جاء نصر الله يوم بدر، وظهر دين الله الذي أمر به وافترضه على خلقه وهو الإسلام، فدخلوا في الإسلام ظاهرا. والمنافقون لظهور أمر الله ونصره إياك كارهون، وكذلك الآن يظهرك الله ويظهر دينه على الذين كفروا من الروم وغيرهم من أهل الكفر به وهم كارهون.

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الزهريّ، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، كلّ قد حدّث في غزوة تبوك ما بلغه عنها، وبعض القوم يحدّث ما لم يحدّث بعض، وكلّ قد اجتمع حديثه في هذا الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من الناس وشدّة من الحرّ وجدب من البلاد، وحين طاب الثمار وأُحِبّت الظلال، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كني عنها وأخبر أنه يريد غير الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدوّ الذي صمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته. فأم الناس بالجهاد، وأخبرهم أنه يريد الروم، فتجهز الناس على ما في أنفسهم من الكره لذلك الوجه لما فيه، مع ما عظموا من ذكر الروم وغزوهم. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّ في سفره، فأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله. فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبيّ ابن

سلول عسكره على ذي حدة أسفل منه نحو ذباب جبلّ بالجبانة أسفل من ثنية الوداع وكان فيما يزعمون ليس بأقلّ العسكرين فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبد الله بن أبيّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، وكان عبد الله بن أبيّ أخا بني عوف بن الخزرج،و عبد الله بن نبتل أخا بني عمرو بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت أخا بني قينقاع، وكانوا من عظماء المنافقين، وكانوا ممن يكيد للإسلام وأهله. قال: وفيهم كما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن البصريّ أنزل الله: لَقَدِ ابْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ... الآية.

الآية: 49

{وَمِنْهُمْ مّن يَقُولُ ائْذَن لّي وَلاَ تَفْتِنّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنّ جَهَنّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}

وذُكر أن هذه الآية نزلت في الجدّ بن قيس. ويعني جلّ ثناؤه بقوله: وَمِنْهُمْ أي ومن المنافقين، مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لي أُقِمْ فلا أشخص معك، وَلا تَفْتِنّي ولا تبتليني برؤية نساء بني الأصفر وبناتهم، فإني بالنساء مغرم، فقد ظنوا أن بالخروج يقعون في الفتنة، والحق أنهم بتخلفهم وقعوا في الفتنة العظيمة، إذ توعدهم الله جهنم وأن تكون محيطة بهم فلا يتمكنون من الخروج منها.

الآية: 50

{إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلّواْ وّهُمْ فَرِحُونَ}

يقول الله تعالى لنبيه: إن يصبك سرور بفتح الله عليك أرض الروم في غزاتك هذه يسوء الجدّ بن قيس ونظراءه وأشياعه من المنافقين، وإن تصبك مصيبة بفلول جيشك فيها يقول الجدّ ونظراؤه: قد أخذنا حذرنا بتخلفنا عن محمد وترك اتباعه إلى عدوّه، من قبل أن تصيبه هذه المصيبة. ويرتدوا عنك وهم فرحون بما أصابك وأصحابك من المصيبة بالفلول والانهزام وقَتْل من قُتِل منكم. فالآية فيها إخبار من الله عز وجل لنبيه بعداوة المنافقين له ولأصحابة وخبث ضمائرهم وسوء أفعالهم.

الآية: 51

{قُل لّن يُصِيبَنَآ إِلاّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلِ الْمُؤْمِنُونَ}

يقول تعالى موجها نبيه الرد عليهم قل يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك حقدا وكرها: لَنْ يُصِيبَنا أيها المرتابون في دينهم إلاّ ما كَتَبَ اللّهُ لَنا في اللوح المحفوظ وقضاه علينا. هو ناصرنا على أعدائه. وعلى الله فليتوكل المؤمنون، فإنهم إن يتوكلوا عليه ولم يرجوا النصر من عند غيره ولم يخافوا شيئا غيره، يكفهم أمورهم وينصرهم على من بغاهم وكادهم.

الآية: 52

{قُلْ هَلْ تَرَبّصُونَ بِنَآ إِلاّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبّصُوَاْ إِنّا مَعَكُمْ مّتَرَبّصُونَ}

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين وصفت لك صفتهم وبيّنت لك أمرهم: هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخلتين اللتين هما أحسن من غيرهما، إما ظفرا بالعدوّ وفتحا لنا بغلبتنا لهم، ففيها الأجر والغنيمة والسلامة، وإما قتلاً من عدوّنا لنا، ففيه الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وكلتاهما مما يُحب، ولا يُكره، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أن يصيبكم بعقوبة من عنده عاجلة تهلككم أو بأيدينا فنقتلكم. فَتَرَبّصُوا إنّا مَعَكُمْ مُتَرَبّصُونَ، إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بنا، وما إليه صائر أمر كلّ فريق منا ومنكم.

الآية: 53

{قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لّن يُتَقَبّلَ مِنكُمْ إِنّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ}

قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: أنفقوا كيف شئتم أموالكم في سفركم هذا وغيره، وعلى أيّ حال شئتم من حال الطوع والكره، فإنكم إن تنفقوها لَن يَتَقَبّل الله مِنْكُم نفقاتكم، وأنتم في شكّ من دينكم وجهل منكم بنبوة نبيكم وسوء معرفة منكم بثواب الله وعقابه. إنّكُمْ كُنْتُمْ قَوْما فاسِقِينَ، خارجين عن الإيمان بربكم.

فكذلك قوله: أنْفِقُوا طَوْعا أوْ كَرْها إنما معناه: إن تنفقوا طوعا أو كرها، لَنْ يُتَقَبّلَ مِنْكُمْ. وقيل: إن هذه الآية نزلت في الجدّ بن قيس حين قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم لما عرض عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم الخروج معه لغزو الروم: هذا مالي أعينك به.

الآية: 54

{وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاّ أَنّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصّلاَةَ إِلاّ وَهُمْ كُسَالَىَ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاّ وَهُمْ كَارِهُونَ}

يقول الله تعالى: وما منع هؤلاء المنافقين أن تقبل منهم نفقاتهم التي ينفقونها في سفرهم معك وفي غير ذلك من السبل إلا أنّهُمْ كَفَرُوا باللهِ وَبِرَسُولِهِ. وَلا يَأْتُونَ الصّلاةَ إلاّ وَهُمْ كُسَالَى لا يأتونها إلا متثاقلين بها، لأنهم لا يرجون بأدائها ثوابا ولا يخافون بتركها عقابا، وإنما يقيمونها مخافة على أنفسهم بتركها من المؤمنين فإذا أمنوهم لم يقيموها. ولا ينفقون من أموالهم شيئا، إلاّ وَهُمْ كارِهُونَ أن ينفقونه في الوجه الذي ينفقونه فيه مما فيه تقوية للإسلام وأهله.

الآية: 55

{فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: فلا تعجبك يا محمد أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم منافقون.

وأما قوله: وَتَزْهَقَ أنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ فإنه يعني: وتخرج أنفسهم، فيموتوا على كفرهم بالله وجحودهم نبوّة نبيّ الله محمد صلى الله عليه وسلم.

الآية: 56

{وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ}

ويحلف هؤلاء المنافقون بالله لكم أيها المؤمنون كذبًا وباطلا إنهم لمنكم، وليسوا منكم، ولكنهم قوم يخافون فيحلفون تَقِيَّة لكم.

الآية: 57

{لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدّخَلاً لّوَلّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ}

يقول تعالى ذكره: لو يجد هؤلاء المنافقون ملجأ أي حصنا يتحصنون به، ومعقلاً يعتقلون فيه منكم، أو مَغَارَاتٍ وهي الغيران في الجبال، أو مُدّخَلاً أي سَرَبا في الأرض يدخلون فيه، لأسرعوا إليه هربا منكم. وَهُمْ يَجْمَحُونَ وهم يسرعون في مشيهم

وذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة. والجماح مشى بين المشيين وإنما وصفهم الله بما وصفهم به من هذه الصفة، لأنهم إنما أقاموا بين أظهر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم على كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم، لأنهم كانوا في قومهم وعشيرتهم وفي دورهم وأموالهم ذو مكانة، فلم يقدروا على ترك ذلك وفراقه وخافوا عليه أن يفقدوه، فصانعوا القوم بالنفاق ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بالكفر ودعوى الإيمان، وفي أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان، فقال الله واصفهم بما في ضمائرهم: لَوْ يَجِدُونَ مَلْجأً أوْ مَغارَاتٍ... الآية.

الآية: 58

{وَمِنْهُمْ مّن يَلْمِزُكَ فِي الصّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}

يقول الله تعالى مخاطبا نبيه: ومن المنافقين الذين وصفت لك صفتهم في هذه الآيات مَنْ يَلْمِزُك فِي الصّدَقاتِ ويعيبك في تفريقها وتقسيمها ويطعن عليك فيها، فإنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا إذ ليس السبب في عيبهم إياك فيها وطعنهم عليك الدين، ولكن الغضب لأنفسهم، فإن أنت أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا عنك، وإن أنت لم تعطهم سخطوا عليك وعابوك، وقيل أن هذه الآية نزلت في ذي الخويصرة.

فعن محمد بن ثور، عن معمر، عن الزهريّ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي سعيد، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسما، إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله فقال: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إنْ لَمْ أعْدِلْ؟» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه قال: «دعه، فإنّ لَهُ أصحابا يَحْقِرُ أحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ وَصِيامَهُ مَعَ صِيامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدّينِ كما يَمْرُقُ السّهْمُ مِنَ الرّمِيّةِ، فَيَنْظُرُ فِي قُذَذِهِ فَلا يَنْظُرُ شَيْئا، ثُمّ يَنْظُرُ فِي نَصْلِهِ فَلا يَجِدُ شَيْئا، ثُمّ يَنْظُرُ فِي رَصَافِهِ فَلا يَجِدُ شَيْئا، قَد سَبَقَ الفَرْثَ وَالدّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أسْوَدُ إحْدَى يَدَيْهِ أوْ قالَ: يَدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرأة أوْ مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ على حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ النّاسِ». قال: فنزلت: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصّدَقاتِ. قال أبو سعيد: أشهد أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشهد أن عليّا رحمة الله عليه حين قتلهم جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الآية: 59

{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ}

يقول الله تعالى: ولو أن هؤلاء الذين يلمزونك يا محمد في الصدقات رضوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء وقسم لهم من قسم، وَقالُوا حَسْبُنا اللّهُ ،كافينا الله، سيعطينا الله من فضل خزائنه ورسوله من الصدقة وغيرها، إنّا إلى اللّهِ رَاغِبُونَ، إنا نرغب في أن يوسع الله علينا من فضله، فيغنينا عن الصدقة وغيرها من صلات الناس والحاجة إليهم لكان خيرا لهم.

الآية: 60

{إِنّمَا الصّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السّبِيلِ فَرِيضَةً مّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

لما اعترض المنافقون الجهلة على النبي ولمزوه في قسم الصدقات، بين لهم الله أنه سبحانه وتعالى هو الذي قسمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها لأحد، وأكد أن لا تنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن سماهم الله عز وجل.

الآية: 61

{وَمِنْهُمُ الّذِينَ يُؤْذُونَ النّبِيّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لّلّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

يعدد الله تعالى أنواع أعمال المنافقين وفضائحهم، قائلا ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه، ويقولون: هو أذن سامعة، يسمع من كلّ أحد ما يقول فيقبله ويصدّقه. فقل لهم يا محمد: هو أذن خير لا أذن شرّ، يسمع ويميز بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم. وذُكر عن الحسن البصري أنه قرأ ذلك: «قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ» بتنوين «أذن»، ويصير «خير» خبرا له، بمعنى قل لهم: إن كان محمد كما وصفتموه يسمع منكم ويصدّقكم ولا يفضحكم، فهذا خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل منكم ما تقولون. ثم كذّبهم فقال: بل لا يقبل إلا من المؤمنين.

فهو يصدّق المؤمنين لا الكافرين ولا المنافقين. وهذا تكذيب من الله للمنافقين الذين قالوا: محمد أذن، يقول جلّ ثناؤه: إنما محمد صلى الله عليه وسلم مستمع خير، يصدّق بالله وبما جاءه من عنده، ويصدّق المؤمنين لا أهل النفاق والكفر بالله الذين توعدهم الله بالعذاب الأليم.

الآية: 62

{يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ}

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم قائلا: يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون بالله ليرضوكم فيما بلغكم عنهم من أذاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكرهم إياه، بالطعن عليه والعيب له، ومطابقتهم سرّا أهل الكفر، بالله والأيمان الفاجرة أنهم ما فعلوا ذلك وإنهم لعلى دينكم ومعكم على من خالفكم، يبتغون بذلك رضاكم. وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أحَقّ أنْ يُرْضُوهُ بالتوبة والإنابة مما قالوا ونطقوا، إنْ كانُوا مُؤْمِنينَ إن كانوا مصدّقين بتوحيد الله، مقرّين بوعده و وعيده.

فعن قتادة، في قوله: يَحْلِفُونَ بالله لكم لِيُرْضُوكُمْ... الآية، ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنَا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقا، لهم شرّ من الحمير قال: فسمعها رجل من المسلمين، فقال: والله إن ما يقول محمد حقّ، ولأنت شرّ من الحمار فسعى بها الرجل إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى الرجل فدعاه، فقال له: «ما حَمَلَكَ على الذي قُلْتَ؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، قال: وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صَدّق الصادق وكذّب الكاذب فأنزل الله في ذلك: يَحْلِفُونَ باللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ واللّهُ وَرَسُولُهُ أحَقّ أنْ يُرْضُوهُ إنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ.

الآية: 63

{أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنّ لَهُ نَارَ جَهَنّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ}

يقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يحلفون بالله كذبا للمؤمنين ليرضوهم وهم مقيمون على النفاق، أنه من يحارب الله ورسوله ويخالفهما فيناوئهما بالخلاف عليهما، فأنّ لَهُ نارَ جَهَنّمَ في الآخرة، خالِدا، مقيما فيها إلى غير نهاية. ذلكَ الخِزْيُ العَظِيمُ ذلك هو الهوان والذلّ العظيم.

الآية: 64

{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِءُوَاْ إِنّ اللّهَ مُخْرِجٌ مّا تَحْذَرُونَ}

يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، فيعلم المؤمنون ما يبطنونه في قلوبهم. وقيل: إن الله أنزل هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا شيئا من أمره وأمر المسلمين، قالوا: لعلّ الله لا يفشي سرّنا فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل لهم: استهزءوا، متهدّدا لهم متوعدا، إنّ اللّهُ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ.

الآية: 65

{وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنّ إِنّمَا كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ}

ولئن سألت هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، ليقولنّ لك: إنما قلنا ذلك لعبا، وكنا نخوض في حديث لعبا وهزوا. فقل لهم أبالله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزءون.

فعن زيد بن أسلم: أن رجلاً من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما لقرّائنا هؤلاء أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنةً وأجبننا عند اللقاء فقال له عوف: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فقال زيد: قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تنكبه الحجارة، يقول: إنّمَا كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فيقول له النبيّ صلى الله عليه وسلم: أبا للّهِ وآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ما يزيده.

الآية: 66

{لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مّنْكُمْ نُعَذّبْ طَآئِفَةً بِأَنّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ}

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء المنافقون: لا تَعْتَذِرُوا بالباطل، فتقولوا كنا نخوض ونلعب. قَدْ كَفَرْتُمْ وجحدتم الحقّ بقولكم ما قلتم في رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به بَعْدَ إيمَانِكُمْ وتصديقكم وإقراركم به

ظاهرا مع إبطانكم الكفر. إنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذّبْ طائِفَةً. وذُكر أنه عنى بالطائفة في هذا الموضع رجل واحد.

الآية: 67

{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}

يقول تعالى ذكره: المُنافِقُونَ وَالمُنافِقاتُ وهم الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بألسنتهم ويسرّون الكفر بالله ورسوله بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ هم صنف واحد، وأمرهم واحد، في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر، يأمرون بالمنكر، وهو الكفر بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به وتكذيبه. وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ وينهون عن الإيمان بالله ورسوله وبما جاءهم به من عند الله.

وقوله: وَيَقْبِضُونَ أيْديهُمْ أي ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله ويكّفونها عن الصدقة، فيمنعون الفقراء حقوقهم من الزكاة التي فرضها الله في أموالهم. نسوا ذكر الله فنسيهم، إن المنافقون هم الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

الآية: 68

{وَعَدَ اللّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفّارَ نَارَ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مّقِيمٌ}

يقول الله تعالى: وَعَدَ اللّهُ المُنافِقِينَ والمُنافِقاتِ والكُفّارَ بالله نارَ جَهنمَ يصليهم جميعا فيها. خالِدِينَ ماكثين أبدا، لا يحيون فيها ولا يموتون. هِي حَسْبُهُمْ وكافيتهم عقابا وثوابا على كفرهم بالله لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها. ولَعَنَهُمُ اللّهُ أي أبعدهم وطردهم وأسحقهم من رحمته. ولهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ عند الله سواء كانوا أهل النفاق أو أهل الكفر، عذابهم مقيم دائم، لا يزول ولا يبيد.

الآية: 69

{كَالّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدّ مِنكُمْ قُوّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالّذِي خَاضُواْ أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدنْيَا وَالاَخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

يذكر الله تعالى تشابه حال هؤلاء المنافقين المستهزئين بالله ورسوله بحال الكفار الذين كانوا قبلهم من الأمم الماضية، وكيف فعلوا مثل أفعالهم فأهلكهم الله، وعجّل لهم في الدنيا الخزي مع ما أعدّ لهم من العقوبة والنكال في الآخرة. ثم وجه خطابه للمنافقين بقوله، واحذروا أن يحلّ بكم من عقوبة الله مثل الذي حلّ بهم، فإنهم كانوا أشدّ منكم قوّة وبطشا، وأكثر منكم أموالاً وأولادا. فاسْتَمْتَعُوا بخَلاقِهِمْ وتمتعوا بنصيبهم وحظهم من دنياهم ودينهم، ورضوا بذلك عوضا من نصيبهم في الآخرة. وقد سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بخلاقكم، فاستمتعتم بدينكم ودنياكم كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم الذين أهلكتهم بخلافهم أمري، وخضتم في الكذب والباطل على الله كالذي خاضوا، خضتم أنتم أيها المنافقون كخوض تلك الأمم قبلكم والذين حبطت أعمالهم وبطلت مساعيهم فلا ثواب عليها لأنها فاسدة.

فعن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: «لَتَأْخُذُنّ كمَا أخَذَت الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، ذِرَاعا بِذِرَاعٍ، وَشِبْرا بِشِبْرٍ، وَباعا بِباعٍ حتى لَوْ أنّ أحَدا مِنْ أُولَئِكَ دَخَلَ جَحْرَ ضَبّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم القرآن: كالّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أشَدّ مِنْكُمْ قَوّةً وأكْثَرَ أمْوَالاً وأوْلادا فاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كمَا اسْتَمْتَعَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كالّذِي خاضُوا قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فَهَلِ النّاسُ إلاّ هُمْ»

أما قوله: أُولَئِكَ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ فإن معناه: هؤلاء الذين قالوا إنما كنا نخوض ونلعب، وفعلوا في ذلك فعل الهالكين من الأمم قبلهم، حبطت أعمالهم أي ذهبت أعمالهم باطلاً، فلا ثواب لها إلا النار، لأنها كانت فيما يسخط الله ويكرهه. وأُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ أولئك هم المغبونون صفقتهم ببيعهم نعيم الآخرة، بخلاقهم من الدنيا اليسير الزهيد.

الآية: 70

{أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُوَاْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}

يقول الله تعالى : ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين يسرّون الكفر بالله، وينهون عن الإيمان به وبرسوله خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم حين عصوا رسلنا، وخالفوا أمرنا ماذا حلّ بهم من عقوبتنا ؟ ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر قوم نوح وصنيعي بهم، إذ كذّبوا رسولي نوحا وخالفوا أمري، ألم أغرقهم بالطوفان؟ وخبر عاد إذ عصوا رسولي هودا، ألم أهلكهم بريح صرصر عاتية؟ وخبر ثمود إذ عصوا رسولي صالحا، ألم أهلكهم بالرجفة، وتركتهم بأفنيتهم خمودا؟ وخبر قوم إبراهيم إذ عصوه، وردّوا عليه ما جاءهم به من عند الله من الحقّ، ألم أسلبهم النعمة وأهلك ملكهم نمروذ؟ وخبر أصحاب مدين بن إبراهيم، ألم أهلكهم بعذاب يوم الظلة، إذ كذّبوا رسولي شعيبا؟ وخبر المنقلبة بهم أرضهم، فصار أعلاها أسفلها، إذ عصوا رسولي لوطا وكذّبوا ما جاءهم به من عندي من الحقّ. أفأمن هؤلاء المنافقون الذين يستهزءون بالله وبآياته ورسوله، أن يسلك بهم في الانتقام منهم وتعجيل الخزي والنكال لهم في الدنيا سبيل أسلافهم من الأمم، ويحلّ بهم بتكذيبهم رسولي محمدا صلى الله عليه وسلم ما حلّ بهم في تكذيبهم رسلنا، إذ أتتهم بالبينات.

فما أهلك الله هذه الأمم التي ذكر أنه أهلكها إلا بإجرامها وظلمها أنفسها واستحقاقها من الله عظيم العقاب، لا ظلما من الله لهم ولا وضعا منه جلّ ثناؤه عقوبة في غير من هو لها أهل لأن الله حكيم، لا خلل في تدبيره ولا خطأ في تقديره، ولكن القوم الذين أهلكهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله حتى أسخطوا عليهم ربهم فحق عليهم كلمة العذاب فعذّبوا.

الآية: 73

{يَأَيّهَا النّبِيّ جَاهِدِ الْكُفّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}

يقول الله تعالى: يا أيها النبيّ جاهد الكفار والمنافقين، والأمر للنبي ثم لأمته من بعده.

واختلف أهل التأويل في صفة الجهاد الذي أمر الله به نبيه في المنافقين، فقال بعضهم أمره بجاهدهم بالسيف، وقال آخرون باليد واللسان، وبكل ما أطاق جهادهم به، وقال آخرون بإقامة الحدود عليهم.

وقوله: وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ أي واشدد عليهم بالجهاد والقتال والإرهاب فهؤلاء مَأْواهُمْ ومساكنهم جهنم هي مثواهم ومأواهم. وَبِئْسَ المَصِيرُ وبئس المكان الذي يصار إليه جهنم.

الآية: 74

{يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوَاْ إِلاّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لّهُمْ وَإِن يَتَوَلّوْا يُعَذّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدّنْيَا وَالاَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ}

اختلف أهل التأويل في الذي نزلت فيه هذه الآية، والقول الذي كان قاله. فقال بعضهم: الذي نزلت فيه هذه الآية: الجُلاس بن سويد بن الصامت

فعن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: نزلت هذه الآية: يَحْلِفُونَ باللّهِ ما قَالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وكَفَرُوا بَعْدَ إسْلاَمِهِمْ في الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقّا، لنحن أشرّ من حميرنا هذه التي نحن عليها فقال مصعب: أما والله يا عدوّ الله لأخبرنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قلت فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وخشيت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة أو أن أخلط، قلت: يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أؤاخذ بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك قال: فدعا الجلاس، فقال له: «يا جلاسُ أقُلْت الّذِي قالَ مُصْعَبُ؟» قال: فحلف، فأنزل الله تبارك وتعالى: يَحْلِفُونَ باللّهِ ما قَالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وكَفَرُوا بَعْدَ إسْلاَمِهِمْ... الآية

وأما قوله: فإنْ يَتُوبُوا يَكَ خَيْرا لَهُمْ يقول تعالى ذكره: فإن يتب هؤلاء القائلون كلمة الكفر من قيلهم الذي قالوه فرجعوا عنه، يك رجوعهم وتوبتهم من ذلك خيرا لهم من النفاق. وإن يدبروا عن التوبة فيأبوها، ويصرّوا على كفرهم يعذّبهم عذابا موجعا في الدنيا، إما بالقتل، وإما بعاجل خزي لهم فيها، ويعذّبهم في الآخرة بالنار.

وقوله: ومَا لَهُمْ فِي الأرْضِ من وَلِيّ وَلا نَصِيرٍ أي وما لهؤلاء المنافقين إن عذّبهم الله في عاجل الدنيا، من وليّ يواليهم على منعه من عقاب الله، ولا نصير ينصرهم من الله، فينقذهم من عقابه وقد كانوا أهل عزّ ومنعة بعشائرهم وقومهم يمتنعون بهم

ممن أرادهم بسوء، فأخبر جلّ ثناؤه أن الذين كانوا يمنعونهم ممن أرادهم بسوء من عشائرهم وحلفائهم، لا يمنعونهم من الله ولا ينصرونهم منه إذ احتاجوا إلى نصرهم.

الآية 76 - 77

{وَمِنْهُمْ مّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصّدّقَنّ وَلَنَكُونَنّ مِنَ الصّالِحِينَ * فَلَمّآ آتَاهُمْ مّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلّواْ وّهُمْ مّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىَ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ}

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المنافقين مَنْ أعطى الله عهدا، لئن أعطانا الله من فضله، ورزقنا مالاً، ووسع علينا من عنده لنخرجنّ الصدقة من ذلك المال الذي رزقنا ربنا، ولنعملنّ فيه بعمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به وإنفاقه في سبيل الله. فلما أعطاهم من فضله تولوا وأدبروا عن عهدهم الذي عاهدوه الله، وهُمْ مُعْرِضُونَ عنه. فَأعْقَبَهُمُ الله نِفاقا فِي قُلُوبِهِمْ ببخلهم بحقّ الله الذي فرضه عليهم فيما آتاهم من فضله، وإخلافهم الوعد الذي وعدوا الله، ونقضهم عهده في قلوبهم إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أخْلَفُوا الله ما وَعَدُوهُ من الصدقة والنفقة في سبيله، وبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ في قيلهم، وحرّمهم التوبة منه فهم قوم دأبهم التولي عن سماع الحق.

واختلف أهل التأويل في المعني بهذه الآية، فقال بعضهم: عني بها رجل يقال له ثعلبة بن حاطب من الأنصار.

الآية: 78، 79

{أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنّ اللّهَ عَلاّمُ الْغُيُوبِ * الّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطّوّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصّدَقَاتِ وَالّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

يقول الله تعالى: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يكفرون بالله ورسوله سرّا، ويظهرون الإيمان بهما لأهل الإيمان جهرا، أن الله يعلم سرّهم الذي يسرونه في أنفسهم من الكفر به وبرسوله، ونجواهم إذا تناجوا بينهم بالطعن في الإسلام وأهله وذكرهم بغير ما ينبغي أن يذكروا به، فيحذروا من الله عقوبته أن يحلها بهم وسطوته أن يوقعها بهم على كفرهم بالله وبرسوله وعيبهم للإسلام وأهله، فينزعوا عن ذلك ويتوبوا منه. ألم يعلموا أن الله علام الغيوب، ويعلم الذين يلمزون المطوّعين في الصدقة من أهل المسكنة والحاجة، بما لم يوجبه الله عليهم في أموالهم، فهم

يطعنون على أهل المقدرة بقولهم إنما تصدّقوا بها رياء وسمعة، ولم يريدوا وجه الله، ويلمزون الذين لا يجدون ما يتصدّقون به إلا جهدهم، وذلك طاقتهم، فينتقصونهم ويقولون لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنيّا سخرية منهم وبهم. فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ ولهم من عند الله يوم القيامة عذاب موجع مؤلم.

وذُكر أن المعنيّ بقوله: المُطّوّعِينَ مِنَ المُؤْمِنينَ عبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عديّ الأنصاري، وأن المعنيّ بقوله: والّذِينَ لا يَجِدُونَ إلاّ جُهْدَهُمْ أبو عقيل الأراشي أخو بني أنيف.

فعن ابن عباس، قوله: الّذِينَ يَلْمِزُونَ المُطّوّعينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فِي الصّدَقاتِ وَالّذِينَ لا يجدُونَ إلاّ جُهْدَهُمْ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم: أن اجْمَعُوا صَدَقَاتِكُمْ فجمع الناس صدقاتهم. ثم جاء رجل من أحوجهم بمنّ من تمر، فقال: يا رسول الله هذا صاع من تمر، بتّ ليلتي أجرّ بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره في الصدقات. فسخر منه رجال وقالوا: والله إن الله ورسوله لغنيان عن هذا، وما يصنعان بصاعك من شيء ثم إن عبد الرحمن بن عوف رجل من قريش من بني زهرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل بقي من أحد من أهل هذه الصدقات؟ فقال: «لا» فقال عبد الرحمن بن عوف: إن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب: أمجنون أنت؟ فقال: ليس بي جنون. فقال: أتعلم ما قلت؟ قال: نعم، مالي ثمانية آلاف: أما أربعة فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بَارَكَ اللّهُ لَكَ فِيما أمْسَكْتَ وَفِيما أعْطَيْتَ» وكره المنافقون فقالوا: والله ما أعطي عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون، إنما كان به متطوعا. فأنزل الله عذره، وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال الله في كتابه: والّذِينَ يَلْمِزُونَ المُطَوّعِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ في الصّدَقاتِ... الآية

الآية: 80

{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}

يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: ادع الله لهؤلاء المنافقين بالمغفرة، أو لا تدع لهم بها. فإن استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم. وقوله: إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ أي إن تسأل لهم أن تستر عليهم ذنوبهم بالعفو منه لهم عنها وترك فضيحتهم بها، فلن يستر الله عليهم، ولن يعفو لهم عنها ولكنه يفضحهم بها على رءوس الأشهاد يوم القيامة. ذلكَ بأنّهُمْ كَفَرُوا باللّهِ وَرَسُولِهِ أي هذا الفعل من الله بهم، وهو ترك عفوه لهم عن ذنوبهم، من أجل أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله. وَاللّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ فالله لا يوفق للإيمان به وبرسوله من آثر الكفر به والخروج عن طاعته على الإيمان به وبرسوله.

ويُروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حين نزلت هذه الآية، قال: «لأَزِيدَنّ فِي الاِسْتِغْفار لَهُمْ على سَبْعِينَ مَرّةٍ» رجاء منه أن يغفر الله لهم، فنزلت سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ.

الآية: 81

{فَرِحَ الْمُخَلّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُوَاْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرّ قُلْ نَارُ جَهَنّمَ أَشَدّ حَرّاً لّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}

يقول الله تعالى: فرح الذين خلفهم الله عن الغزو مع رسوله والمؤمنين به وجهاد أعدائه بمقعدهم خِلافَ رَسُولِ اللّهِ وجلوسهم في منازلهم، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالنفر إلى جهاد أعداء الله، فخالفوا أمره وجلسوا في منازلهم. وكَرِهُوا أنْ يُجاهِدُوا بأمْوَالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ إذ كره هؤلاء المخلفون أن يغزوا الكفار بأموالهم وأنفسهم في دين الله الذي شرعه لعباده لينصروه، ميلاً إلى الدّعَة والخَفْض، وإيثارا للراحة على التعب والمشقة، وشُحّا بالمال أن ينفقوه في طاعة الله. وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الحَرّ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم استنفرهم إلى هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك في حرّ شديد، فقال المنافقون بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرّ فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل لهم يا محمد نار جهنم التي أعدّها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله، أشدّ حرّا من هذا الحرّ الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه، هو أشدّ حرّا وأحرى أن يحذر ويتقى. هذا لو كان هؤلاء المنافقون يفقهون عن الله وعظه ويتدبرون آي كتابه، ولكنهم لا يفقهون عن الله، فهم يحذرون من الحرّ أقله مكروها وأخفه أذى، ويوافقون أشدّه مكروها وأعظمه على من يصلاه بلاء.

الآية: 82

{فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}

وهذا نوع آخر من قبائح المنافقين، إذ يفرحون ويضحكون بمقعدهم خلاف رسول الله، فليضحكوا فرحين قليلاً في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول الله ولهوهم عن طاعة ربهم، فإنهم سيبكون طويلاً في الآخرة بدلا من ضحكهم القليل في الدنيا جزاء لهم على معصيتهم بتركهم النفر، وقعودهم في منازلهم خلاف رسول الله.

الآية: 83

{فَإِن رّجَعَكَ اللّهُ إِلَىَ طَآئِفَةٍ مّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوّلَ مَرّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ}

يقول جلّ ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم: فإن ردّك الله يا محمد إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه، فاستأذنوك للخروج معك في أخرى غيرها، فقل لهم: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أبَدا وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّا إنّكُمْ رَضِيتُمْ بالقُعُودِ أوّلَ مَرّةٍ وذلك عند خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، فاقْعُدُوا مَعَ الخالِفِينَ مع الذين قعدوا من المنافقين خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنكم منهم، فاقتدوا بهديهم واعملوا مثل الذي عملوا من معصية الله، فإن الله قد سخط عليكم.

الآية: 84

{وَلاَ تُصَلّ عَلَىَ أَحَدٍ مّنْهُم مّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ}

يقول جلّ ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم: لا تصلّ يا محمد على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك أبدا، وَلا تَقُمْ على قَبْرِهِ أي ولا تتولّ دفنه وتقبره. إنّهُمْ كَفَرُوا باللّهِ إنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله، وماتوا وهم خارجون من الإسلام مفارقون أمر الله ونهيه. وقد ذكر أن هذه الآية نزلت حين صلى النبيّ صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبيّ.

فعن ابن عمر، قال: جاء ابن عبد الله بن أبيّ ابن سلولَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات أبوه، فقال: أعطني قميصك حتى أكفنه فيه، وصلّ عليه واستغفر له فأعطاه قميصه، وقال: «إذَا فَرَغْتُمْ فَآذِنُونِي» فلما أراد أن يصلي عليه،

جذبه عمر وقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: «بَلْ خَيّرَنِي وقالَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أوْ لا تَسْتَغْفرْ لَهُمْ» قال: فصلي عليه. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: وَلا تُصَلّ على أحَدٍ منْهُمْ ماتَ أبَدا وَلا تَقُمْ على قَبْرِهِ قال: فترك الصلاة عليهم.

الآية: 85

{وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذّبَهُمْ بِهَا فِي الدّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}

يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: ولا تعجبك يا محمد أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره من أجل كثرة ماله وولده، فإني إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذّبه بها في الدنيا بالغموم والهموم، بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات. وَتَزْهَقَ أنْفُسُهُمْ فتخرج نفسه من جسده، فيفارق ما أعطيته من المال والولد، فيكون ذَلك حسرة عليه عند موته ووبالاً عليه في الآخرة بموته، جاحدا توحيد الله ونبوّة نبينه محمد صلى الله عليه وسلم.

الآية: 86

{وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُنْ مّعَ الْقَاعِدِينَ}

يقول الله تعالى: وإذا أنزل عليك يا محمد سورة من القرآن، يقال فيها لهؤلاء المنافقين آمِنُوا باللّهِ صدّقوا بالله وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ بغزو المشركين معه، اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطّوْلِ مِنْهُمْ استأذنك ذو الغنى والمال منهم في التخلف عنك والقعود في أهله وقالوا لك دعنا نكن ممن يقعد في منزله مع ضعفاء الناس ومرضاهم ومن لا يقدرعلى الخروج معك في السفر.

الآية: 87

{رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىَ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ}

يقول الله تعالى: رضي هؤلاء المنافقون الذين إذا قيل لهم: آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله أن يكونوا مع الخوالف، فاستأذنك أهل الغنى منهم في التخلف عن الغزو والخروج معك لقتال أعداء الله من المشركين، ورضوا أن يكونوا في منازلهم كالنساء اللواتي ليس عليهنّ فرض الجهاد، فهن قعود في منازلهنّ وبيوتهنّ. وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ

أي ختم الله على قلوب هؤلاء المنافقين، فهم لا يفقهون عن الله مواعظه فيتعظون بها.

الآية: 88

{لَـكِنِ الرّسُولُ وَالّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

وهذا إخبار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر، فقد قام بفريضة الجهاد من هم خير منهم و أخلص نية، ممن صدقوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء هم الذين جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم، فأنفقوا في جهادهم أموالهم وأتعبوا في قتالهم أنفسهم وبذلوها. وللرسول وللذين آمنوا معه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم الخيرات، وهي خيرات الآخرة، فهؤلاء هم المفلحون.

الآية: 89

{أَعَدّ اللّهُ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

أعدّ الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وللذين آمنوا معه جنات، وهي البساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار. خالدينَ فيهَا لابثين فيها، لا يموتون فيها، ولا يظعنون عنها. ذلكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ذلك النجاء العظيم والحظّ الجزيل.

الآية: 90

{وَجَآءَ الْمُعَذّرُونَ مِنَ الأعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

يقول الله تعالى: جاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المُعَذّرُونَ مِنَ الأعْرَابِ ليُؤْذَنَ لَهُمْ في التخلف. وَقَعَدَ عن المجيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه الّذِينَ كَذّبُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وقالوا الكذب، واعتذروا بالباطل. سيصيب الذين جحدوا توحيد الله ونبوّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والذين اعتذروا بالباطل منهم عذاب أليم.

الآية: 91، 92

{لّيْسَ عَلَى الضّعَفَآءِ وَلاَ عَلَىَ الْمَرْضَىَ وَلاَ عَلَى الّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ للّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رّحِيمٌ}

وهنا يؤكد الله تعالى أنه ليس على أهل الزمانة وأهل العجز عن السفر والغزو، ولا على المرضى، ولا على من لا يجد نفقة يتبلغ بها إلى مغزاه حرج، ليس عليهم إثم إذا نصحوا لله ولرسوله في مغيبهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ما عَلى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ فليس على من أحسن فنصح الله ورسوله في تخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جهاد معه لعذر يعذر به طريق يتطرّق عليه فيعاقب من قبله. وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ والله ساتر على ذنوب المحسنين، يتغمدها بعفوه لهم عنها، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها.

وذُكر أن هذه الآية نزلت في عائذ بن عمرو المزني. وقال بعضهم: في عبد الله بن مغفل. فعن ابن عباس، قال: لَيْسَ على الضّعَفاءِ وَلا على المَرْضَى... إلى قوله: حَزَنا أنْ لا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَاللّهُ ما أجِدُ ما أحْمِلكُمْ عَلَيْهِ» فتولوا ولهم بكاء، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا مَحملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله، أنزل عذرهم في كتابه، فقال: لَيْسَ على الضّعَفاءِ وَلا على المَرْض ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج.

فلا سبيل على النفر الذين إذا ما جاءوك لتحملهم يسألونك الحُمْلان ليبلغوا إلى مغزاهم لجهاد أعداء الله معك يا محمد، قلت لهم: لا أجد حمولة أحملكم عليها أدبروا عنك، وأعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدّمْعِ حَزَنا وهم يبكون من حزن على أنهم لا يجدون ما ينفقون ويتحملون به للجهاد في سبيل الله.

الآية: 93

{إِنّمَا السّبِيلُ عَلَى الّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}

يقول الله تعالى: ما السبيل بالعقوبة على أهل العُذر يا محمد، ولكنها على الذين يستأذنوك في التخلف خلافك وترك الجهاد معك وهم أهل غنى وقوّة وطاقة للجهاد والغزو، نفاقا وشكّا في وعد الله ووعيده. رَضُوا بأنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ رضوا بأن يجلسوا بعدك مع النساء وهنّ الخوالف خلفَ الرجال في البيوت، ويتركوا الغزو معك. فَطَبَعَ اللّهُ على قُلُوبِهِمْ وختم الله عليها بما كسبوا من الذنوب. فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

سوء عاقبتهم بتخلفهم عنك وتركهم الجهاد معك وما عليهم من قبيح الثناء في الدنيا وعظيم البلاء في الآخرة.

الآية: 94

{يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاّ تَعْتَذِرُواْ لَن نّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمّ تُرَدّونَ إِلَىَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

يقول الله تعالى: يعتذر إليكم أيها المؤمنون بالله هؤلاء المتخلفون خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، التاركون جهاد المشركين معكم من المنافقين بالأباطيل والكذب إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم. فقل لهم يا محمد: لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ لن نصدقكم على ما تقولون. قَدْ أخبرنا الله من أخباركم، وأعلمنا من أمركم ما قد علمنا به كذبكم. وسيرى الله ورسوله فيما بعد عملكم، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ثُمّ تُرَدّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشّهادةِ ثم ترجعون بعد مماتكم إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم السرّ والعلانية الذي لا يخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها. فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فيخبركم بأعمالكم كلها سيئها وحسنها، ويجازيكم بها الحسن منها بالحسن والسيىء منها بالسيىء.

الآية: 95

{سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}

يقول الله تعالى مخاطبا المؤمنين: أن هؤلاء المنافقين سيحلفون بالله بالاعذار الباطلة عند رجوعكم من الغزو لتعرضوا عنهم فلا توبخونهم وتؤنبوهم. فأعْرِضُوا عَنْهُمْ ودعوا تأنيبهم وخلوهم، وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق. إنهم نجس ومأواهم جهنم، هي مسكنهم الذي يأوونه في الآخرة. جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسَبُونَ ثوابا بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من معاصي الله، فهؤلاء غير مؤهلين لقبول الأرشاد إلى الخير. وذكر أن هذه الآية نزلت في رجلين من المنافقين.

الآية: 96

{يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنّ اللّهَ لاَ يَرْضَىَ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}

يقول الله تعالى للمؤمنين: يَحْلِفُ لَكُمْ أيها المؤمنون بالله هؤلاء المنافقون اعتذارا بالباطل والكذب لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فإنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فإنّ اللّهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفاسِقِينَ، فإن أنتم أيها المؤمنون رضيتم عنهم وقبلتم معذرتهم، إذ كنتم لا تعلمون صدقهم من كذبهم، فإن رضاكم عنهم غير نافعهم عند الله لأن الله يعلم من سرائر أمرهم ما لا تعلمون، ومن خفيّ اعتقادهم ما تجهلون، وأنهم على الكفر بالله وأنهم الخارجون من الإيمان إلى الكفر بالله ومن الطاعة إلى المعصية.

الآية: 97

{الأعْرَابُ أَشَدّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللّهُ عَلَىَ رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال المنافقين في المدينة ذكر حال من كان خارجا عنها من الأعراب بقوله: الأعراب أشدّ جحودا لتوحيد الله وأشدّ نفاقا من أهل الحضر في القرى والأمصار. وذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم أقسى قلوبا وأقلّ علما بحقوق الله. وأحق وأخلق أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله لبعدهم عن مواطن الأنبياء وديار التنزيل.

الآية: 98

{وَمِنَ الأعْرَابِ مَن يَتّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبّصُ بِكُمُ الدّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السّوْءِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}

يقول الله تعالى: ومن الأعراب من يَعُدّ نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك أو في معونة مسلم أو في بعض ما ندب الله إليه عباده غُرْما وخسرانا لزمه، لا يرجو له ثوابا، ولا يدفع به عن نفسه عقابا. وينتظرون بكم الدوائر أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروه، ونفي محبوب، وغلبة عدوّ لكم. جعل الله دائرة السوء عليهم، ونزول المكروه بهم لا عليكم أيها المؤمنون، ولا بكم، والله سميع لدعاء الداعين، عليم بتدبيرهم وما هو بهم نازل من عقاب الله وما هم إليه صائرون من أليم عقابه.

الآية: 99

{وَمِنَ الأعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَيَتّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرّسُولِ أَلآ إِنّهَا قُرْبَةٌ لّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رّحِيمٌ}

هذا نوع ثان من الأعراب وهم من يصدق الله ويقرّ بوحدانيته وبالبعث بعد الموت والثواب والعقاب، وينوي بما ينفق من نفقة في جهاد المشركين وفي سفره مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قُرُباتٍ عِنْدَ اللهِ يتقرب بها لينال رضا الله ومحبته. ويبتغي بنفقة ما ينفق مع طلب قربته من الله دعاء الرسول واستغفاره له، وقد أكد الله أن هؤلاء يقبل الله منهم.

100 الآية

{وَالسّابِقُونَ الأوّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالّذِينَ اتّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

يقول الله تعالى: والذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا منازلهم وأوطانهم، والأنصار الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله، والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طَلَبَ رضا الله، رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ.

واختلف أهل التأويل في المعني بقوله: والسّابِقُونَ الأوّلُونَ فقال بعضهم: هم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان

فعن الحسن بن عطية، قال: حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي، قال: مرّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ: السّابِقُونَ الأوّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ والأنْصَارِ... حتى بلغ: وَرَضُوا عَنْهُ قال: وأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ قال: أبيّ بن كعب. فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم، قال: أنت سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، قال: لقد كنت أظن أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبيّ: بلى تصديق هذه الآية في أوّل سورة الجمعة: وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ... إلى: وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ، وفي سورة الحشر: وَالّذِينَ جَاءُوا مِنَ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبّنَا اغْفِرْ لَنَا ولإِخْوانِنا الّذِينَ سَبَقُونَا بالإِيمَانِ، وفي الأنفال: والّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وجَاهَدُوا مَعَكُمْ فأُلَئِكَ مِنْكُمْ... إلى آخر الآية.

الآية: 101

{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مّنَ الأعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذّبُهُم مّرّتَيْنِ ثُمّ يُرَدّونَ إِلَىَ عَذَابٍ عَظِيمٍ}

يقول الله تعالى: ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون، ومن أهل مدينتكم أيضا أمثالهم أقوام منافقون. مَرَدُوا على النّفاقِ مرنوا عليه ودربوا به وثبتوا عليه حتى خفي أمرهم عنك من شدة نفاقهم ولكن الله يعلمهم. وقوله: سَنُعَذّبُهُمْ مَرّتَيْنِ أي سنعذّب هؤلاء المنافقين مرّتين: إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر. ثم اختلف أهل التأويل في التي في الدنيا ما هي فقال بعضهم: هي فضيحتهم فضحهم الله بكشف أمورهم وتبيين سرائرهم للناس على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الآية: 102

{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رّحِيمٌ}

يقول الله تعالى: هناك نوع آخر من منافقين المدينة، وهم الذين اعترفوا بذنوبهم، وأقرّوا بذنوبهم. خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحا بالعمل السيىء، العمل الصالح متمثلا في اعترافهم بذنوبهم وتوبتهم منها، والآخر السيىء هو تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج غازيا، وتركهم الجهاد مع المسلمين.

عَسَى اللّهُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، لعلّ الله أن يتوب عليهم. وعسى من الله واجب، وإنما معناه: سيتوب الله عليهم. إنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يقول: إن الله ذو صفح وعفو لمن تاب عن ذنوبه وساتر له عليها رحيم أن يعذّبه بها.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنيّ بهذه الآية والسبب الذي من أجله أنزلت فيه، فقال بعضهم: نزلت في عشرة أنفس كانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، منهم أبو لبابة، فربط سبعة منهم أنفسهم إلى السواري عند مقدم النبي صلى الله عليه وسلم توبة منهم من ذنبهم.

فعن ابن عباس، قوله: وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحا وآخَرَ سَيّئا عَسَى اللّهُ... إلى قوله: إنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا غزوة تبوك، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.ثم إن أبا لُبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهَلَكة، وقالوا: نكون في الكنّ والطمأنينة

مع النساء، ورسول الله والمؤمنون معه في الجهاد؟ والله لنوثِقنّ أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو يطلقنا ويعذرنا فانطلق أبو لبابة وأوثق نفسه ورجلان معه بسواري المسجد، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم. فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته، وكان طريقه في المسجد، فمرّ عليهم فقال: «مَنْ هَولاءِ المُوثِقُو أنْفُسِهِمْ بالسّواري؟» فقالوا: هذا أبو لُبابة وأصحاب له تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم، وقد اعترفوا بذنوبهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «واللهِ لا أُطْلِقُهُمْ حتى أُومَر بإطْلاقِهِمْ، ولا أعْذِرهُمْ حتى يَكُونَ اللّهُ هُو يَعْذُرُهُمْ، وقَدْ تَخَلّفُوا عَنّي وَرَغِبُوا بأنْفُسِهِمْ عَنْ غَزْوِ المُسْلِمِينَ وَجِهَادِهِمْ» فأنزل الله برحمته: وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحا وآخَرَ سَيّئا عَسَى اللّهُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وعسى من الله واجب. فلما نزلت الآية أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذرهم، وتجاوز عنهم.

الآية: 103

{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهّرُهُمْ وَتُزَكّيهِمْ بِهَا وَصَلّ عَلَيْهِمْ إِنّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: يا محمد خذ من أموال هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم فتابوا منها صدقة تطهرهم بها من دنس ذنوبهم وتنميهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق، إلى منازل أهل الإخلاص. وَصَلّ عَلَيْهِمْ أي وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ منها. إنّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ إن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم بأن الله قد عفا عنهم وقبل توبتهم. وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ والله سميع لدعائك إذا دعوت لهم ولغير ذلك من كلام خلقه، عليم بما تطلب بدعائك ربك لهم وبغير ذلك من أمور عباده.

الآية: 104

{أَلَمْ يَعْلَمُوَاْ أَنّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصّدَقَاتِ وَأَنّ اللّهَ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ}

وهذا خبر من الله تعالى ذكره أخبر المؤمنين به أن قبول توبة من تاب من المنافقين وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها ليسا إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، وأن

نبيّ الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسواري من المتخلفين عن الغزو معه وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عنهم حين أذن له في ذلك إنما فعل ذلك من أجل أن ذلك لم يكن إليه صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك إلى الله تعالى ذكره دون محمد، وأن محمدا إنما يفعل ما يفعل من ترك وإطلاق وأخذ صدقة وغير ذلك من أفعاله بأمر الله. فقال جلّ ثناؤه: ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد مع المؤمنين الموثقوا أنفسهم بالسواري، القائلون لا نطلق أنفسنا حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقنا، السائلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ صدقة أموالهم أن ذلك ليس إلى محمد، وأن ذلك إلى الله، وأن الله هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده أو يردّها، ويأخذ صدقة من تصدق منهم، أو يردّها عليه دون محمد، فيوجهوا توبتهم وصدقتهم إلى الله، ويقصدوا بذلك قصد وجهه دون محمد وغيره، ويخلصوا التوبة له ويريدوه بصدقتهم، ويعلموا أن الله هو التوّاب الرحيم، المراجع لعبيده إلى العفو عنه إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا هم أنابوا إلى رضاه من عقابه.

الآية: 105

{وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدّونَ إِلَىَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قُلْ يا محمد لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك اعْمَلُوا لله بما يرضيه من طاعته وأداء فرائضه، فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ فسيرى الله إن عملتم عملكم، ويراه رسوله وَالمُؤْمِنُونَ في الدنيا. وَسَتَرَدّونَ يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم، فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركُمْ وظواهرها. فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فيخبركم بما كنتم تعملون، وما منه خالصا وما منه رياء وما منه طاعة وما منه لله معصية، فيجازيكم على ذلك كله.

الآية: 106

{وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللّهِ إِمّا يُعَذّبُهُمْ وَإِمّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

يقول الله تعالى: ومن هؤلاء المتخلفين عنكم أيها المؤمنون آخرون. مرجئون لأمر الله وقضائه، وعنى بهؤلاء الآخرين نفر ممن كان تخلف عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم في غزوة تبوك، فندموا على ما فعلوا ولم يتعذروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مقدمه، ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فأرجأ الله أمرهم إلى أن صحت توبتهم، فتاب عليهم وعفا عنهم.

الآية: 107

{وَالّذِينَ اتّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاّ الْحُسْنَىَ وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنّهُمْ لَكَاذِبُونَ}

يقول تعالى ذكره: ومن المنافقين تلك الطائفة الذين ابتنوا مسجدا ضرارا، وهم اثنا عشر نفسا من الأنصار، وكان هدفهم من ذلك كما ذكر الله أربعة أمور:

1- الضرار للمؤمنين.

2- الكفر بالله.

3- التفريق بين المؤمنين.

4- الإرصاد لمن حارب الله ورسوله.

فعن عاصم بن عمر بن قتادة وأخرون، قالوا: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني من تبوك حتى نزل بذي أوان، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار. وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه فقال: «إنّي على جَناحِ سَفَر وَحالِ شُغْلٍ» أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَلَوْ قَدْ قَدِمْنا أَتَيْناكُمْ إنْ شاءَ اللّهُ فَصَلّيْنَا لَكُمْ فِيهِ». فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عديّ أو أخاه عاصم بن عديّ أخا بني العجلان، فقال: «انْطَلِقا إلى هَذَا المَسْجِدِ الظّالِمِ أهْلُهُ فاهْدِمَاهُ وَحَرّقاهُ» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل، فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشتدّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرّقاه وهدماه، وتفرّقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: وَالّذِينَ اتّخَذُوا مَسْجِدا ضِرارا وكُفْرا إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وهو إلى بني

أمية بن زيد، ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف عمرو بن عوف، وجارية بن عامر وأبناه: مجمع بن جارية، وزيد بن جارية، ونبتل بن الحرث وهم من بني ضبيعة، وبَخْدَج وهو إلى بني ضبيعة، وبجاد بن عثمان وهو من بني ضبيعة، ووديعة بن ثابت وهو إلى بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر..

فتأويل الكلام: والذين ابتنوا مسجدا ضرارا لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفرا بالله لمحادّتهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفرّقوا به المؤمنين ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعضهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا. وَإِرْصَادا لِمَنْ حارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ أي وإعدادا له، لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله، وكفر بهما وقاتل رسول الله من قبل بنائهم ذلك المسجد. وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حَزّبَ الأحزاب لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما خذله الله، لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبيّ الله، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه فيما ذكرعنه ليصلي فيه فيما يزعم إذا رجع إليهم ففعلوا ذلك. وهذا معنى قول الله جلّ ثناؤه: وَإِرْصَادا لِمَنْ حارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ. وَلَيَحْلِفُنّ إنْ أرَدْنا إلاّ الحُسْنَى وليحلفنّ بانوه إن أردنا إلا الحسنى ببنائنا إياه، لم نرد إلا الرفق بالمسلمين والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المسير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة فيه. وتلك هي الفعلة الحسنة التي يتحدثون عنها. واللّهُ يَشْهَدُ إنّهُمْ لَكاذِبُونَ في حلفهم ذلك، وقيلهم ما بنيناه إلا ونحن نريد الحسنى، ولكنهم بنوه يريدون ببنائه السوء ضرارا لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفرا بالله وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لأبي عامر الفاسق.

الآية: 108

{لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لّمَسْجِدٌ أُسّسَ عَلَى التّقْوَىَ مِنْ أَوّلِ يَوْمٍ أَحَقّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبّونَ أَن يَتَطَهّرُواْ وَاللّهُ يُحِبّ الْمُطّهّرِينَ}

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: لا تقم يا محمد في المسجد الذي بناه هؤلاء المنافقون ضرارا، وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله. ثم أقسم جلّ ثناؤه فقال: لَمَسْجِدٌ أُسّسَ على التّقْوَى مِنْ أوّلِ يَوْمٍ أحَقّ أنْ تَقُومَ أنت فيه. والمقصود بقوله: أُسّسَ على التّقْوَى ابتدىء أساسه وأصله على تقوى

الله وطاعته من أوّل يوم ابتدىء في بنائه أحَقّ أنْ تَقُومَ فِيهِ أولى أن تقوم فيه مصليا. وقيل: معنى قوله: مِنْ أوّلِ يَوْمٍ مبدأ أوّل يوم كما تقول العرب: لم أره من يوم كذا، بمعنى مبدؤه، ومن أوّل يوم يراد به من أول الأيام.

واختلف أهل التأويل في المسجد الذي عناه: لَمَسْجِدٌ أُسّسَ على التّقْوَى مِنْ أوّلِ يَوْمٍ فقال بعضهم: هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه منبره وقبره اليوم.

الآية: 109

{أَفَمَنْ أَسّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ تَقْوَىَ مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مّنْ أَسّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ}

والمعنى أيّ هذين الفريقين خير، وأيّ هذين البناءين أثبت، من ابتدأ أساس بنائه على طاعة الله وعلم منه بأن بناءه لله طاعة والله به راض، أم من ابتدأه بنفاق وضلال وعلى غير بصيرة منه بصواب فعله من خطئه، فهو لا يدري متى يتبين له خطأ فعله وعظيم ذنبه فيهدمه، كما يقام البناء على جرف ركية لا حابس لماء السيول عنها ولا لغيره من المياه، لذلك لا تلبث السيول أن تهدمه وتنثره؟ فانْهَارَ بِهِ فِي جَهَنّمَ أي فتمزق وتبعثر الجرف الهاري ببنائه في نار جهنم.

الآية: 110

{لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاّ أَن تَقَطّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

يقول الله تعالى: لا يزال مسجدهم الذي بنوه سببا في زيادة ريب قلوبهم، فقد ازدادوا شكّا ونفاقا وتصميما على الكفر ومقتا للإسلام لما أصابهم من الغيظ بعد هدم رسول الله له، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين. ولا يزالون كذلك إلا أن تتصدّع قلوبهم فيموتوا، والله عليم بما عليه هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار من شكهم في دينهم وما قصدوا في بنائهم إياه وأرادوه وما إليه صائرأمرهم في الآخرة، وبغير ذلك من أمرهم وأمرغيرهم، حكيم في تدبيره إياهم وتدبير جميع خلقه.

الآية: 111

{إِنّ اللّهَ اشْتَرَىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمُ الْجَنّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

يقول تعالى ذكره: إن الله ابتاع من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة وعدا عليه حقّا أن يوفي لهم به في كتبه المنزّلة التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وفوا بما عاهدوا الله فقاتلوا في سبيله ونصرة دينه أعداءه فَقَتلوا وقُتلوا. إذ مَنْ أوْفَى بِعَهدِهِ مِنَ اللّهِ من أحسن وفاء بما ضمن وشرط من الله. فاستبشروا أيها المؤمنون الذين صدقوا الله فيما عاهدوا بِبَيْعِكُمْ أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم، فإن ذلك هو الفوز العظيم.

الآية: 112

{التّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السّائِحُونَ الرّاكِعُونَ السّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِينَ}

يحدد الله سبحانه وتعالى صفات هؤلاء المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله، أنهم هم التائبون العابدون السائحون الراكعون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكروالحافظون لحدود الله، وأولئك لهم البشرى.

الآية: 113، 114

{مَا كَانَ لِلنّبِيّ وَالّذِينَ آمَنُوَاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوَاْ أُوْلِي قُرْبَىَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاّ عَن مّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيّاهُ فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ أَنّهُ عَدُوّ للّهِ تَبَرّأَ مِنْهُ إِنّ إِبْرَاهِيمَ لأوّاهٌ حَلِيمٌ}

هذه الآية تتضمن قطع الموالاة للكفار، وتحريم الاستغفار لهم إذ يقول تعالى: ما كان ينبغي للنبي صلى الله عليه وسلم والذين إمنوا به أن يستغفروا أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كان المشركون الذين يستغفرون لهم ذوي قرابة لهم. مِنْ بَعْدِ ما تَبَيّنَ لَهُمْ أنّهُمْ أصحَابُ الجَحِيمِ من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان وتبين لهم أنهم من أهل النار لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله.

فإن قالوا: فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك، فلم يكن استغفار إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إياه فَلمّا تَبَيّنَ لَهُ وعلم أنه لله عدوّ خلاه وتركه وترك الاستغفار له، وآثر الله وأمره عليه، فتبرأ منه حين تبين له أمره.

واختلف أهل التأويل في السبب الذي نزلت هذه الآية فيه، فقال بعضهم: نزلت في شأن أبي طالب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم أراد

أن يستغفر له بعد موته، فنهاه الله عن ذلك فعن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عَمّ قُلْ لا إلَهَ إلاّ اللّهُ كَلِمَةً أشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللّهِ» قال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَاللّهِ لأَسْتَغْفِرَنّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فأنْزَلَ اللّهُ: ما كَانَ للنّبِيّ وَالّذِينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله: إنّكَ لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ... الآية.

الآية: 115

{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتّىَ يُبَيّنَ لَهُم مّا يَتّقُونَ إِنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

لما نزلت الآية السابقة في النهي عن الاستغفار عن المشركين، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله، فأنزل الله (وما كان الله ليضل.....) إذ يقول تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا الانتهاء عنه فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهى. إنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْء عَلِيمٌ إن الله ذوعلم بما خالط أنفسكم عند نهي الله إياكم عن الاستغفار لموتاكم المشركين من الجزع على ما سلف منكم من الاستغفار لهم قبل تقدمه إليكم بالنهي عنه وبغير ذلك من سرائر أموركم وأمور عباده وظواهرها، فبين لكم حلمه في ذلك عليكم ليضع عنكم ثقل الوجد بذلك.

الآية: 116

{إِنّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ}

يقول الله تعالى: إن الله أيها الناس له سلطان السماوات والأرض وملكهما، وكلّ من دونه من الملوك فعبيده ومماليكه، بيده حياتهم وموتهم، يحيي من يشاء منهم ويميت من يشاء منهم، فلا تجزعوا أيها المؤمنون من قتال من كفر بي من الملوك، ملوك الروم كانوا أو ملوك فارس والحبشة أو غيرهم، واغزوهم وجاهدوهم في طاعتي، فأني المعزّ من أشاء منهم ومنكم والمذلّ من أشاء. وهذا حضّ من الله جلّ ثناؤه للمؤمنين على قتال كل من كفر به من المماليك.

وقوله: وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيّ وَلا نَصِير أي وما لكم من أحد هو لكم حليف من دون الله يظاهركم عليه إن أنتم خالفتم أمر الله فعاقبكم على خلافكم أمره يستنقذكم من عقابه، ولا نصير ينصركم منه إن أراد بكم سوءا. فبالله فثقوا، وإياه فارهبوا، وجاهدوا في سبيله من كفر به، فإنه قد اشترى منكم أنفسكم وأموالكم بأن لكم الجنة، تقاتلون في سبيله فتَقْتُلُونَ وَتُقْتَلُونَ.

الآية: 117

{لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الّذِينَ اتّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مّنْهُمْ ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رّحِيمٌ}

يقول الله تعالى: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله، الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحقّ ويشكّ في دينه ويرتاب بالذي ناله من المشقة والشدّة في سفره وغزوه. ثم رزقهم جلّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه وإبصار الحقّ الذي كان قد كاد يلتبس عليهم. إن ربكم بالذين خالط قلوبهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدّة والمشقة، رَءُوفٌ بهم، رَحِيمٌ أن يهلكهم، فينزع منهم الإيمان بعد ما قد أبلوا في الله ما أبلوا مع رسوله وصبروا في البأساء والضرّاء.

فعن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب رحمة الله عليه في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظنّ أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله قد

عوّدك في الدعاء خيرا، فادع لنا قال: «تُحِبّ ذلكَ؟» قال: نعم.فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء، فأظلت ثم سكبت، فملئوا ما معهم، ثم رجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

الآية: 118

{وَعَلَى الثّلاَثَةِ الّذِينَ خُلّفُواْ حَتّىَ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنّوَاْ أَن لاّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاّ إِلَيْهِ ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوَاْ إِنّ اللّهَ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ}

يقول الله تعالى: لقد تاب الله كذلك على الثلاثة الذين خلفوا. وهؤلاء الثلاثة الذين وصفهم الله في هذه الآية بما وصفهم به فيما قبل، هم الآخرون الذين قال جلّ ثناؤه: وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللّهِ إمّا يُعَذّبَهُمْ وإمّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فتاب عليهم عزّ ذكره وتفضل عليهم. والمعنى لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلّفهم الله عن التوبة، فأرجأهم عمن تاب عليه ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

فعن قتادة، أما قوله: خُلّفُوا فخلّفوا عن التوبة حتى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ يقول: بسعتها غمّا وندما على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ بما نالهم من الوجد والكرب بذلك. وَظَنّوا أنْ لا وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجئون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء بتخلفهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينجيهم من كربه، ولا مما يحذرون من عذاب الله إلا الله. ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم، لينيبوا إليه ويرجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه. إنّ اللّهَ هُوَ التّوّابُ الرّحيمُ إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته الموفق من أحبّ توفيقه منهم لما يرضيه عنه، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم عن التوبة والإنابة ولا يتوب عليه.

الآية: 119

{يَـأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصّادِقِينَ}

يقول تعالى ذكره للمؤمنين معرّفهم سبيل النجاة من عقابه والخلاص من أليم عذابه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه وتجنب حدوده، وكونوا في الدنيا من أهل ولاية الله وطاعته، تكونوا في الآخرة مع الصادقين

في الجنة. يعني مع من صدق الله الإيمان به فحقق قوله بفعله ولم يكن من أهل النفاق فيه الذين يكذّب قيلهم فعلهم.

والمقصود وكونوا مع الصادقين في الآخرة باتقاء الله في الدنيا، كما قال جلّ ثناؤه: وَمَنْ يُطِعِ اللهِ وَالرّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النّبِيّينَ والصّدّيقِينَ والشهَدَاءِ وَالصّالِحِين.

الآية: 120

{مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مّنَ الأعْرَابِ أَن يَتَخَلّفُواْ عَن رّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوّ نّيْلاً إِلاّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}

يقول تعالى ذكره: لم يكن لأهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن حولهم من الأعراب سكان البوادي، الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وهم من أهل الإيمان به أن يتخلفوا في أهاليهم ولا دارهم، ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صحبته في سفره والجهاد معه ومعاونته على ما يعانيه في غزوه ذلك. لم يكن لهم هذا، إذ لا يصيبهم في سفرهم إذا كانوا مع رسول الله عطش ولا نصب ولا تعب، ولا مجاعة في إقامة دين الله ونصرته، وهدم منار الكفر. ولا يطئون أرضا يغيظ الكفار وطؤهم إياها. ولا يصيبون من عدوّ الله وعدوّهم شيئا في أموالهم وأنفسهم وأولادهم إلا كتب الله لهم بذلك كله ثواب عمل صالح قد ارتضاه. إنّ اللّهَ لا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ إن الله لا يدع محسنا من خلقه أحسن في عمله فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه، أن يجازيه على إحسانه ويثيبه على صالح عمله.

وقد اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية، فقال بعضهم: هي محكمة، وإنما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، لم يكن لأحد أن يتخلف إذا غزا خلافه فيقعد عنه إلا من كان ذا عذر، فأما غيره من الأئمة والولاة فإن لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف خلافه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة.

الآية: 121

{وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}

يقول الله تعالى: ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ، ولا ينالون من عدوّ نيلاً، ولا ينفقون نفقة صغيرة في سبيل الله، ولا يقطعون مع رسول الله في غزوه واديا إلا كتب لهم أجر عملهم ذلك، جزاءً لهم عليه كأحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم.

الآية: 122

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلّ فِرْقَةٍ مّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لّيَتَفَقّهُواْ فِي الدّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوَاْ إِلَيْهِمْ لَعَلّهُمْ يَحْذَرُونَ}

يقول الله تعالى: ولم يكن المؤمنون لينفروا جميعا.

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي عناه الله بهذه الآية وما النفر الذي كرهه لجميع المؤمنين، فقال بعضهم: هو نفر كان من قوم كانوا بالبادية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمون الناس الإسلام، فلما نزل قوله: ما كانَ لأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أنْ يَتَخَلّفُوا عَنْ رَسُولِ اللّهِ انْصَرفوا عن البادية إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم خشية أن يكونوا ممن تخلف عنه وممن عني بالآية. فأنزل الله في ذلك عذرهم بقوله: وَما كانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافّةً وكره انصراف جميعهم من البادية إلى المدينة.

وقيل تأويله: وما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، وأن الله نهى بهذه الآية المؤمنين به أن يخرجوا في غزو وجهاد وغير ذلك من أمورهم ويدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيدا ولكن عليهم إذا سرى رسول الله سرية أن ينفر معها من كلّ قبيلة من قبائل العرب طائفة، كما قال الله جلّ ثناؤه: فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ.

و هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن الله تعالى ذكره حظر التخلف خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين به من أهل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن الأعراب لغير عذر يعذرون به إذا خرج رسول الله لغزو وجهاد عدوّ قبل هذه الآية بقوله: ما كانَ لأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أنْ يَتَخَلّفُوا

عَنْ رَسُولِ اللّهِ، ثم عقب ذلك جلّ ثناؤه بقوله: وَما كانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافّةً فكان معلوما بذلك إذ كان قد عرّفهم في الآية التي قبلها اللازم لهم من فرض النفر والمباح لهم من تركه في حال غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم وشخوصه عن مدينته لجهاد عدوّ، وأعلمهم أنه لا يسعهم التخلف خلافه إلا لعذر بعد استنهاضه بعضهم وتخليفه بعضهم أن يكون عقيب تعريفهم ذلك تعريفهم الواجب عليهم عند مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمدينته وإشخاص غيره عنها، كما كان الابتداء بتعريفهم الواجب عند شخوصه وتخليفه بعضهم.

وأما قوله: لِيَتَفَقّهُوا فِي الدّينِ وَلِيُنْذِرُوا قوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ. فإن أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ليتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله أهل دينه وأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به، فيفقه بذلك من معاينته حقيقة علم أمر الإسلام وظهوره على الأديان من لم يكن فقهه، ولينذروا قومهم فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا وعاينوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم. لعلّ قومهم إذا هم حذّروهم ما عاينوا من ذلك يحذرون، فيؤمنون بالله ورسوله، حذرا أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرهم.

الآية: 123

{يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الّذِينَ يَلُونَكُمْ مّنَ الْكُفّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوَاْ أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ}

يقول الله تعالى للمؤمنين به وبرسوله: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله قاتلوا من وليَكم من الكفار دون من بعُد منهم، أي ابدءوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارا دون الأبعد فالأبعد. وكان الذي يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ الروم، لأنهم كانوا سكان الشأم يومئذ، والشأم كانت أقرب إلى المدينة من العراق. فأما بعد أن فتح الله على المؤمنين البلاد، فإن الفرض على أهل كل ناحية قتال من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم ما لم يضطرّ إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي بلاد الإسلام، فإن اضطرّوا إليهم لزم عونهم ونصرهم، لأن المسلمين يد على من سواهم.

الآية: 124

{وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مّن يَقُولُ أَيّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمّا الّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}

يقول الله تعالى: وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فمن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم الله في هذه السورة من يقول لأخوانه أيكم زادته هذه السورة إيمانا؟ استهزاء بالمؤمنين، ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين لصدهم عن الإسلام. فأما الذين آمنوا من الذين قيل لهم ذلك، فزادتهم إيمانا وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين.

الآية: 125

{وَأَمّا الّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىَ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ}

أي وأما الذين في قلوبهم مرض، نفاق وشكّ في دين الله، فإن السورة التي أنزلت زادتهم رجسا إلى رجسهم، وذلك أنهم شكوا في أنها من عند الله، فلم يؤمنوا بها ولم يصدّقوا، فكان ذلك زيادة شكّ حادثة في تنزيل الله، فقد لزمهم الإيمان بما أنزل ولكنهم ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة نتن من أفعالهم إلى ما سلف منهم نظيره من النتن والنفاق، وذلك معنى قوله: فَزَادَتْهُمْ رِجْسا إلى رِجْسِهِمْ وَماتُوا يعني هؤلاء المنافقين هلكوا، وهم كافرون بالله وآياته.

الآية: 126

{أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلّ عَامٍ مّرّةً أَوْ مَرّتَيْنِ ثُمّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذّكّرُونَ}

أوَ لا يرى هؤلاء المنافقون أن الله يختبرهم في كلّ عام مرّة أو مرّتين، بمعنى أنه يختبرهم في بعض الأعوام مرّة، وفي بعضها مرّتين. ثم لا يَتُوبُونَ أي ثم هم مع البلاء الذي يحلّ بهم من الله والاختبار الذي يعرض لهم لا ينيبون من نفاقهم، ولا يتوبون من كفرهم، ولا هم يتذكرون بما يرون من حجج الله ويعاينون من آياته، فيتعظوا بها ولكنهم مصرّون على نفاقهم.

واختلف أهل التأويل في معنى الفتنة التي ذكر الله في هذا الموضع فقال بعضهم: ذلك اختبار الله إياهم بالقحط والشدّة.

الآية: 127

{وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مّنْ أَحَدٍ ثُمّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنّهُمْ قَوْمٌ لاّ يَفْقَهُون}

أي وإذا ما أنزلت سورة من القرآن فيها عيب هؤلاء المنافقين الذين وصف جلّ ثناؤه صفتهم في هذه السورة، وهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر بعضهم إلى بعض، فتناظروا هل يراكم من أحد إن تكلمتم أو تناجيتم بمعايب القوم فيخبرهم، ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستمعوا قراءة السورة التي فيها معايبهم. فقد صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوب هؤلاء المنافقين ذلك بأنّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ فقد فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، استكبارا ونفاقا.

الآية: 128

{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رّحِيمٌ}

يقول الله تعالى للعرب: لَقَدْ جاءَكُمْ أيها القوم رَسُولٌ الله إليكم مِنْ أَنْفُسِكُمْ تعرفونه لا من غيركم، فتتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم. عزيز عليه عنتكم، ودخول المشقة والمكروه والأذى عليكم. حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ حريص على هداكم عن ضلالكم وتوبتكم ورجوعكم إلى الحقّ. بالمُؤْمِنِينَ رفيق رَحِيمٌ.

الآية: 129

{فَإِن تَوَلّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لآ إِلَـهَ إِلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَهُوَ رَبّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}

يقول الله تعالى: فإن تولى يا محمد هؤلاء الذين جئتهم بالحقّ من عند ربك من قومك، فأدبروا عنك ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله وما دعوتهم إليه من النور والهدى، فقل حسبي الله، يكفيني ربي لا إلَهِ إلاّ هُوَ لا معبود سواه، عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه وإلى نصره استندت، فإنه ناصري ومعيني على من خالفني وتولى عني منكم ومن غيركم من الناس. وَهُوَ رَبّ العَرْشِ العَظِيم الذي يملك كل ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده. وإنما عني بوصفه جلّ ثناؤه نفسه بأنه ربّ العرش العظيم، الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده وفي ملكه وسلطانه لأن

العرش العظيم إنما يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه ذو العرش دون سائر خلقه وأنه الملك العظيم دون غيره وأن كل من في سلطانه وملكه جار عليه حكمه وقضاؤه.

المنافقون في السنة

إذا كان القرآن تناول المنافقين في كثير من الآيات واصفا إياهم وصفا يُغني عن التصريح بأسمائهم ويؤكد وجودهم في كل زمان ومكان داخل المجتمع الإسلامي، فقد أشارت السنة كذلك لهؤلاء المنافقين في عدد من الأحاديث التي حدد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم صفات المنافقين وحذر من الاتصاف بأي منها، كما حذر من أصحابها وخطرهم على المسلمين:

1- عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ".

2- عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، فمن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النِّفاق حتى يدعها ".

3- عن أبي أمامة الباهلي، قال: "المنافق الذي إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا غنم غل، وإذا أمر عصى، وإذا لقي جبن فمن كنَّ فيه ففيه النِّفاق كله، ومن كان فيه بعضهنَّ ففيه بعض النِّفاق ".

4- عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان ".

5- قال عمر رضي الله عنه: "ما أخاف عليكم أحد رجلين: رجل مؤمن قد تبين إيمانه، ورجل كافر قد تبين كفره ولكن أخاف عليكم منافقاً يتعوذ بالإيمان ويعمل غيره ".

6- عن زياد بن حدير، قال: قال عمر بن الخطاب: "يهدم الإسلام ثلاثة: زلة عالم، وجدال المنافق بالقرآن، وأئمة مضلون ".

7- عن ابن شهاب الزهري، أنَّ أبا إدريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني أخبره أن يزيد بن عميرة وكان من أصحاب معاذ بن جبل قال: "كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال حين يجلس: الله حكم قسط وتبارك اسمه هلك المرتابون،

وقال معاذ بن جبل يوماً: إنَّ من ورائكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيه القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، والحر والعبد فيوشك قائلاً أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة وأنذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق ".

8- عن معاوية الهذلي، وكان، من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ المنافق ليصلي فيكذبه الله عز وجل ويصوم فيكذبه الله عز وجل ويتصدق فيكذبه الله ويجاهد فيكذبه الله ويقاتل فيقتل فيجعل في النار ".

9- عن حذيفة، قال: "المنافقون الذين فيكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فقلنا: يا أبا عبد الله وكيف ذاك؟ قال: إن أولئك كانوا يسرون نفاقهم وإن هؤلاء يعلنون ".

10- عن أبي البختري، قال: قال رجل: "اللهم أهلك المنافقين فقال حذيفة: لو هلكوا ما انتصفتم من عدوكم ".

11- عن حبة بن جوين، قال: "كنا في غزاة مع سلمان فقال سلمان: هؤلاء المشركون - يعني العدو - وهؤلاء المؤمنون وهؤلاء المنافقون فيؤيد الله المؤمنين بقوة المنافقين وينصر الله المنافقين بدعوة المؤمنين ".

12- وعن عروة بن الزبير، قال: "أتيت عبد الله بن عمر فقلت له: يا أبا عبد الرحمن إنا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون بالكلام نعلم أن الحق غيره فنصدقهم فيقضون بغير الحق فنقر به عليهم ونحسنه لهم فكيف ترى في ذلك؟ قال: يا ابن أخي كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعد هذا النفاق ولا أدري كيف هو عندكم ".

13- وعن أبي الشعثاء، قال: "دخل نفر على عبد الله بن عمر من أهل العراق فوقعوا في يزيد بن معاوية فتناولوه فقال لهم عبد الله: هذا قولكم لهم عندي أتقولون هذا في وجوههم؟ قالوا: لا بل نمدحهم ونثني عليهم فقال ابن عمر: هذا النفاق عندنا".

14- عن المبارك بن فضالة، عن الحسن، قال: "المنافق الذي إذا صلى راءى بصلاته وإن فاتته لم يأس عليها ويمنع زكاة ماله ".

15- حدثنا الحسن، في هذه الآية "﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: 23] قال: هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه "
قال الحسن:" من النَّفاق اختلاف اللسان والقلب، واختلاف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج ".
16- وعن أبو بشر الضحاك بن عبد الرحمن، قال: سمعت بلال بن سعد، يقول: "المنافق يقول بما يعرف، ويعمل بما ينكر ".
17- عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "ويل للعرب من شر قد اقترب، فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، المتمسك منهم يومئذ على دينه كالقابض على خبط الشوك أو جمر الغضى ".
18- عن أبو هريرة: "تجدون الناس مَعادِنَ، خيارُهم في الجاهليَّة خِيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا، وتجدون خيرَ النَّاسِ في هذا الشأن أشَدَّهُم له كراهية، حتى يقع فيه، وتجدون شرَّ الناس ذَا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجْه وهؤلاء بوجْه ".

ملخص لأهم صفات المنافقون

إذا كان الله تعالى، ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، والصحابة الكرام حذروا مرارا وتكرارا من خطر المنافقين، ووضعوا وصفا دقيقا لهم، فالحاجة ماسة في هذه الأيام لتسليط الضوء أكثر على شخصية المنافق، ووضعها تحت المجهر لدراسة تصرّفاتها، ومحاولة الوقوف على سلوكياتها وكشف خبايا نفسها، فقد كثر المنافقون في زمننا هذا لدرجة تستدعي ضرورة كشفهم ومتابعة سلوكياتهم وأفكارهم، والسعي لفضح حالهم، والتعرف على أسرارهم، لنستطيع التعامل معهم بالطريقة المناسبة، التي تكف شرهم وتكشف حالهم.

فالمنافق تأثيره الهدام عظيم، ولعل هذا ما يفسر لنا لماذا خص القرآن الكريم هذه الفئة بقدر كبير من الذكر والتفصيل، لننتبه إليهم ونتعرف عليهم وعلى أوصافهم، بداية من أول سورة بعد الفاتحة (سورة البقرة). وليس هذا وحسب بل يحذرنا منهم تحذيرا صريحا بقوله: {هم العدو فاحذرهم}.

وإن كان النفاق لم يهدد ويؤثر في الأمة الإسلامية على طول التاريخ الإسلامي كتهديده وتأثيره في زمننا هذا، فشرهم في هذا الزمان أضعاف ما كان في العصور السابقة، خاصة مع وسائل التكنولوجيا والإعلام الحديثة التي سهلت وصول أفكارهم المريضة لجميع فئات المجتمع، رجال ونساء، شيوخ وشباب حتى المراهقين والأطفال ما يؤثر في تشكيل وعيهم ومعتقداتهم، ويجعل التعرف على صفاتهم وعرضها، ضرورة ملحة، يجب الاهتمام بها.

فالتخريب الحاصل من هذه الفئة مدمرا للمجتمع المسلم، وهو ما أكد القرآن الكريم عليه في أكثر من موضع، فحثنا على ضرورة التنبّه إلى دسائسهم، وبيّن لنا حالهم وأهم صفاتهم التي منها:

1-مرضى القلوب وكافرون:

فالمنافقون لا يمتلكون الشجاعة الكافية لإعلان موقفهم الحقيقي الذي يواجهون به أهل الإيمان.. فلا هم صادقون في إعلانهم الإيمان، ولا هم قادرون على إعلان إنكاره صراحة، يعانون ازدواجية إيمانية، وسبب ذلك هو الشك والريبة التي تملء قلوبهم، فتنحرف إجبارا عن طريق الإيمان رغم إظهارهم الإيمان: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}. أما كفرهم فهو إما كفر شك وتردد بين أتباع الحق وقبوله أو الشك بصحته: {ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُون}، أو كفر استكبار وعناد فهم يعلمون أن الإسلام هو الدين الحق ومع ذلك يكفرون به استكبارا: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُون}.

2- مُفسدون يزعمون الإصلاح:

مفسدون في الأرض، بمعصيتهم ربهم، وتضييع فرائضه، وشكهم في دينه والتشكيك فيه، يظاهرون أهل الباطل، ويخدمون أعداء الدين، وهم مع ذلك لا يشعرون أنهم مفسدون، يسعون لتخريب كل بذرة خير، وكل نبتة طيبة بنشر الفتنة والبلبة في صفوف المسلمين، ودعم الأفكار الفاسدة والعمل بكل جهد لتشويه الدين، ومع ذلك يزعمون أنهم مصلحون، يسعون إلى خير الناس كبرا وعنادا للاعتراف

بحقيقتهم الفاسدة، فقد اختل عندهم ميزان الصح والصواب، والحق والباطل، وما أكثرهؤلاء المفسدون الذين يزعمون الإصلاح في وقتنا الحاضر، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}، لكنّ الله عز وجل فضحهم وأظهر حقيقتهم، فهم حقيقة المفسدون، الذين يُحاربون الإصلاح والصلاح والمصلحين: {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ}.

3- سفهاء متكبرون:

يتعالون على الناس، ويعدون الإيمان والإخلاص لله عز وجل، نوعاً من السفاهة، فإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ}. هم يصفون المؤمنين بالسفهاء، والحقيقة أنهم هم السفهاء، يظهرون عكس ما يبطنون، ويقولون ما لا يفعلون ويتهمون غيرهم بالسفه.

4- مخادعون متآمرون:

فهم أصحاب مكرٍ سيئ، يتصفون بالخسة واللؤم والجبن، يتلونون حسب الظروف، يتوددون للمسلمين بلين الكلام ويظهرون الإيمان وهم مبطنون للغدر والخديعة، يظهرون الصلاح والسعي لما فيه خير الإسلام والمسلمين، وهم حقيقة يسعون إلحاق الضرر للدين والقضاء عليه وإيذاء أهله، فولائهم حقيقة لغير ملة الإسلام فهم أمام المؤمنين مؤمنون، وأمام رؤسائهم وكبرائهم وأعداء الدين يظهرون على حقيقتهم، شياطين متسترون بلباس الدين يظهرون الإيمان استهزاء بالمؤمنين، ويهدفون فقط النيل من المؤمنين والإيقاع بهم، وإلحاق أقصى درجات الأذى بهم: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}. لكنّ الله عز وجل، يُواجههم بتهديده الذي يوضح لهم حقيقة ما هم عليه وما هو مصيرهم لقاء ذلك: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ

تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}. وهو المصير الذي استحقوه بعد أن عرفوا الإيمان ثم كفروا به، فلا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

5- غادرون لا عهد لهم:

رغم أن العهد هو مسؤلية بين العبد وربه، هو أمانة يجب عليه أن يؤديها ويحافظ عليها، لكن المنافقون لا عهد ولا أمانة لهم، يعاهدون الله قولا على فعل الخيرات، وعلى الالتزام بما يأمرهم به والجهاد في سبيله والدفاع عن دينه، لكن قلوبهم خاوية، وعقولهم منكرة، شياطينهم متمكنون منهم يضمرون عدم الوفاء، قاتلهم الله، فهم ناقضون لعهد الله عز وجل، فاستحقوا عقاب الله الذي زادهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم القيامة: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}.

6- موالاة الكافرين:

فهم يتقربون للكافرين ويتوددون إليهم ويظهرون محبتهم ومودتهم لهم بالقول والعمل، ظنا منهم أن العزة عند الكافرين فهم يؤمنون بالقوى المادية، ما يجعلهم يروا صحة ظنهم، لكنهم لن يجدوا العزة حقيقة إلا عند الله القوي العزيز: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً}. ولا ننكر أن المؤمنون الآن أقل قوة مادية، ولكن لديهم من الإيمان واليقين بالله ما يثبت أقدامهم ويحقق لهم النصر ولكن المنافقين لا يفقهون قال تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}. إذا هم يوالون الكفار من دون المؤمنين بحثا عن العزة والرفعة، ولكنهم لن يجدوا إلا الذل والخزي فالعزة لله جميعا دون غيره، ولهم جزاء هذه الموالاة العذاب الأليم لما تسببه من ضرر في صفوف المسلمين، ذلك أنهم وبسبب هذه الموالاة والمحبة للكافرين يقوموا بنصرتهم من دون المؤمنين، كما قد يدخلوا معهم في المعاهدات والتحالفات ويشاركوهم خططهم ضد المسلمين فيطيعوا أوامرهم بمحاربة أهل

الإسلام وكشف أسرارهم، فهم يرون أهل الشرك على حق وكيف لا؟ وهذه الوسيلة الوحيدة لتبرير خيانتهم والتعايش معها، وقبول الباطل والدفاع عنه.

7- يتربَّصون بالمؤمنين:

فهم طالبون الغنيمة مع المؤمنين إن فازوا وانتصروا، ومنقلبين عليهم ومع الكافرين إن كان غير ذلك: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً}. يتطلعون لما في أيدي المسلمين، ويبغضوهم ويكرهوهم لأنه يرونهم لا يستحقون ما حصلوا عليه، وأنهم هم الأحق بالخير دون غيرهم.

8- الحسد والفرح لما يصيب المؤمنين من سوء وشدة:

فقلوبهم مليئة بالحقد على المؤمنين، يتمنون زوال النعم عنهم، فهم يرون أنفسهم أحق بالخير دون المؤمنين، فيحزنون لكل خير يمكن أن يصيب المؤمنين سواء بالنصر على عدوهم أو الغنائم التي يحصلون عليها، ويفرحون لما يصيبهم من سوء أو هزيمة قال الله عز وجل: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}.

9- مُرجِفون مثبطون للهمم:

عند المحن والشدائد لا يعرفون ولا يحسنون إلا الإرجاف، وتثبيط العزائم، كالسوس ينخر في صفوف المؤمنين فيضعفها، محاولين تحقيق ما لم يستطيع العدوُّ تحقيقه في الأمة، فيشقُّون الصفوف، ويُثيرون الفتنة، ويحاولون زعزعة أي تماسكٍ ووحدة للمؤمنين فهم لا يثقون في الله وتأييده للمؤمنين: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً}.

10- يتولّون يومَ الزَّحفِ:

فهم لا يكتفون بتثبيط الهمم فقط، فعند وقوع المحنة والبلاء، وحين تحين ساعة الجهاد والعمل يكونوا أول الفارين، يُولُّون مدبرين، ويختفون من ساحة المعركة، ولا يفوتهم أن يبرروا هروبهم بحجج كاذبة، ظننا أنه لن تكون هناك حرب: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۖ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، وليس هذا وحسب بل يروا في تخلفهم حكمة ومصلحة وحفظا للأرواح، فقد نزلت الأية في ابن سلول ومن معه ممن تراجع عن الجهاد يوم أحد، فلم يكتفوا بشق الصف المسلم والتخاذل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل زعموا كذبا وزورا أن في تخلفهم هذا مصلحة وحكمة، وأن من أصيب من المسلمين لو أطاعوهم ما قتلوا وما أصيبوا، أما اتباع النبي الكريم فهو مغرما وضياع للأرواح، لينشروا الحسرة والقهر في قلوب أهالي الشهداء من الصحابة، ولكن الله العزيز الحكيم تحداهم موضحا كذبهم، فليبعدوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين.

11- يرفضون الحكم بما أنزل الله ويتحاكمون إلى الطاغوت:

يكره المنافقون التحاكم إلى شرع الله، فالحكم بما أنزل الله لا يُوافق هواهم، ولا يُحقق أغراضهم، فهم يؤمنون باللسان وفي الظاهر فقط، لكنهم لا يقبلون حكم الله بقلوبهم، بل يصدون عنه ويُحاربونه ولم لا؟ والشرع لا يحقق مصالحهم، لذلك نجدهم دائما يشككون في جدوى تطبيق الشرع، ويفضلون قوانين البشر الوضعية ويتحاكمون إليها، هي دستورهم وهاديهم الموافق أهوائهم، لذلك يأتمرون بأمرها، ويلتزمون بها: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ

ضَلالاً بَعِيداً. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً}.

12-الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

والمنكر هو كل ما جاء في الدين النهي عنه، والمعروف هو كل ما جاء في الدين الأمر به، والمسلمون تستقيم أمورهم وينصلح حالهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لذلك يأمرنا القرآن بالأمر بالمعروف والنهي عن النكر ولكن المنافقين استحوذ عليهم الشيطان، وصدهم عن صحيح الفطرة فأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ}. فالمنافقون والمنافقات قوم فسدت طباعهم، وأظلمت قلوبهم، فقلبوا الحقائق وأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف وإن كانوا يفعلون ذلك سرا فهم لا يستطيعوا الجهر بذلك، وهم يفعلوه فقط ابتغاء الفتنة وإفساد المسلمين.

13- التلون والتملق:

فهم يتلونون بألوان عديدة، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يتظاهرون بعمل الخير وهم أفسد الناس، يدعون التقوى وطاعة الله وهم حقيقة يريدون اتباع أهوائهم فهم فسقه، فكان جزاؤهم ألا يوفقهم الله للحق، وهذا من حكمة الله، فمن أجل أن يصل المنافق إلى ما يُريد، ولكونه لا يستند على قاعدة عقائدية ولا يملك مؤهلات أخلاقية، يجد نفسه مُرغماً على التلون وفقاً للظروف والأحوال، فهو لا يجد حرجا في أن يظهر بمظاهر مختلفة حسب ما يميله هواه ومصلحته، كما أنه لا يمانع في أن يخضع لهذا أو يتملق ذاك فيمدح من لا يستحق وينتقص من شأن من يستحق المدح فالمهم تحقيق هدفه، لا قيم له ولا كرامة: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ}.

14- تشويه الحقائق وتحريفها وبث الإشاعات:

وهي من الأدوات الخطيرة التي يستخدمها المنافقون، فهم يظهرون الحقائق الناصعة بمظهر مشوه، يعرضون الحقيقة ولكن بتفاصيل كاذبة ما يثير البلبلة بين المؤمنين وتلك الكارثة، إذ يكون المؤمن بين مصدق ومكذب ومتردد، ما يفتح الباب للقيل والقال وربما الخوض في الصالحين، بغية إشاعة الفاحشة في الذين أمنوا، وهذا ما صنعه المنافقون في حادثة الإفك التي حد فيها ثلاثة من الصحابة ما كانوا ليخطر في بالهم ما قالوا ولكنه النفاق فتح لهم باب الشر فدخلوا دون حذر منه: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

15- دس الأفكار المنحرفة والمفاهيم الخاطئة:

وهذه مهمة يحرص عليها المنافقون كثيراً، فهم وتحت غطاء الإسلام لا يقدمون الإسلام إلى الناس إلا بصورة مشوشة، ويعرضون مفاهيمه بشكل محرف ضال فهم لا يرون فيه خير ولا يلمسون عظة، بل على العكس من ذلك يجعلونه سببا لكل جهل وعنف، ومعوقا عن التجديد والتحديث كما يزعمون، وما ذلك إلا لصد الناس عنه: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ}.

16- إثارة الفتنة والوقيعة بين المسلمين:

إن المنافقين يسعون جاهدين إلى تقطيع أواصر الوحدة بين المسلمين، وإثارة الخلافات والفرقة فيما بينهم، ذلك أنهم ونتيجة عجزهم عن مواجهة الصالحين صراحة، وهدم صحيح الدين، لجأوا إلى إثارة الفتنة والوقيعة بين أفراد المجتمع، فيحارب بعضهم بعضا، وهذا ولا شك أسلوب يؤدي إلى هزيمة الإسلام وسهولة السيطرة على المسلمين، ويفتح المجال للأعداء التدخل في شؤن المسلمين وإضعافهم بل والحفاظ على بقائهم في حالة الفرقة والضعف والنزاع: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ}.

17- التجسس وخدمة أعداء الإسلام:

وهذه مهمة أساسية من مهام المنافقين حيث يتتبعون عورات المسلمين ونقاط ضعفهم وقوتهم وما يخططون له، ثم يقدمون للعدو المحرك والممول لهم كل هذه المعلومات وكل ما يتعلق بنشاطات المسلمين وتحركاتهم، وقادتهم، ما يؤدي لهزيمة المسلمين أو للتدخل في شؤنهم وألحاق الأذى بهم وأضعافهم، لذلك لا عجب أن يجعل الله عذاب هؤلاء الفسدة أشد من عذاب الكفار الأعداء الصرحاء للإسلام والمسلمين: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}.

18- الكذب وقول الباطل

فهم يدعون أنهم من المسلمين كذبا وزورا، وما فعلوا ذلك إلا تقية، فهم يروا في الكذب حماية لأنفسهم من المسلمين الذين هم أعدائهم حقيقة هذا ما تخفيه قلوبهم، فهم لا يؤمنون بالله ورسوله لكن رأوا مصلحتهم في ادعاء الإسلام والتظاهر بالإيمان: {وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُون}.

ورغم هذا الادعاء الكاذب، إلا أن أقوالهم تفضحهم وتكشف حقيقة نفاقهم، فقد أكد الله تعالى أن من أهم الصفات التي يمكن التعرف عليهم بها هي أقوالهم: {ولتعرفنّهم في لحن القول} وهذا من الإعجاز القرآني فمعرفتهم حقيقة تكون من أقوالهم، فكل عالم ذو بصيرة يعرف المنافق إذا ما تأمل أقواله، فالمنافق يجد ضيقا شديدا في قلبه، من كثرة ما يخفيه من حقد وكره وأفكار فاسدة، لذلك يظهر حقده، وأفكاره الفاسدة تخرج مع أقواله دون وعي منه، تخرج تلك الأفكار فتفضح لنا حاله فيعرف.

19- حب الدنيا وعشق المال:

ولعل من أخطر صفات المنافق حبه للدنيا وعشقه للمال، فهو من أجل الحصول عليه يبيع كل شيء الإسلام والمسلمين، بل وأهله هو نفسه، فلا آخرة يعمل من أجلها ولا رب يخاف عقابه، المهم أن يعيش، فلا دار أخرى يسعى من أجلها، فعليه أن يستغل فرصته الوحيدة في الحياة، فلا قيم ولا مبادىء بل المال والمال فقط: {وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}، فهم من أجل المال يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه.

ما يجعل كرههم لمظاهر الدين كرها ملازما لقلوبهم لا ينفك عنه، فهم في عداء مع الصلاة، والزكاة، والصدقة، والجهاد، منذ نشأتهم وحتى يومنا هذا، هم يكرهون أي فرض أو قيد يحول بينهم وبين الدنيا والتمتع بها، خاصة في زماننا هذا الذي أظهرت فيه الدنيا العديد من المتع العصرية والتي لا تتوافق والدين.

فالمنافقون زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرغبون في أداء الصلاة ولكن لا يضايقهم أن يؤديها المؤمنين. أما منافقون اليوم ضد المسجد نفسه، ضد وجوده، هم ضد أداء الصلاة نفسها ضد أن يؤديها المسلمون فهذا يضايقهم رغم أنهم لا يؤدوها، هم ضد الدين صراحة، يحاربونه بشراسة أشد من شراسة أهل الملل الأخرى ومن لا دين لهم، ومع ذلك يدعون الإسلام.

فاستحقوا ما وعدهم الله تعالى: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}.

القرآن وعبقرية التعامل مع المنافقين

عندما نتدبرالقرآن الكريم نتأمل آياته وننتقل بينها من آية لآية ومن سورة لسورة نلاحظ بوضوح العديد من الحوارات بين الله سبحانه وتعالى وبعض مخلوقاته، أو بين المخلوقات بعضهم بعضا، فهناك حوار بين الله تعالى وملائكته الكرام، وبين الله تعالى وأنبيائه، وحوارات كثيرة بين الأنبياء وأقوامهم، وحوار بين نبي الله سليمان وطائر الهدهد، وبين النمل بعضه بعضا، بعض هذه الحوارات كانت مطولة تكشف لنا الكثير من التفاصيل والبعض الأخر موجزا دون تفصيل.

بل قد يندهش البعض حينما يعلم أن القرآن الكريم عرض لنا حوارات مع إبليس نعم مع إبليس فنجد الحوار بينه وبين رب العالمين تكرر أكثر من مرة، إذ يأمره الله بالسجود لأدم فيرفض أبليس ويؤكد في كل مرة عزمه المؤكد وحرصه الشديد على غواية بني آدم، فيسمح له القرآن أن يعبر عن رأيه ويتحدث عن قراره في إغواء بني آدم وخطته للقيام بذلك، ونعرف من الحوار كذلك أن أمامه مهلة تمتد حتى قيام الساعة لتحقيق هذا الهدف، ولم يخل كذلك القرآن من التحاور مع المعارضين للإسلام المجاهرين له بالعداء ولدعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من المشركين

وأهل الكتاب، وجادلهم في القضايا التي يخالفون فيها على نحو ما نرى في الحوار مع المشركين في قضايا التوحيد، والبعث، وبشرية الرسول صلى الله عليه وسلم، والحوار مع أهل الكتاب حول صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وصحة القرآن وأنه منزل من عند الله متمم ومكمل لما قبله من كتب، ومع هذا الحرص على الحوار مع المخالفين المجاهرين له بالعداء وعرض آرائهم ومناقشتها بالعقل والحجة. ومع كثرة هذه الحوارات التي كان حتى للحيوان نصيب منها لا نرى أي حوار في القرآن مع المنافقين، فكل ما جاء في القرآن عن المنافقين إما تحديدا لصفاتهم مثل قوله تعالى: {إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ}، أو فضحاً لأفعالهم مثل قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ}.

وإذا حاولنا معرفة سبب عدم وجود حوار مع المنافقين في القرآن، نقول ربما يكون لأن المنافقين عرفوا الحق وآمنوا به ظاهرا ثم ارتدوا عنه وكفروا به سرا فأصبحوا يعيشون بشخصية مزدوجة، شخصية تعرف الحق وتُظهره دون الإيمان به، والأخرى ترفض الحق وتكفر به ولكنها تُخفي ذلك الرفض، فأي شخصية ممكن أن يخاطبها القرآن التي تُظهر الإيمان أم التي تبطن الكفر، ولعل هذا أول عقاب ضد المنافقين وأول قواعد التعامل معهم ،التجاهل وتحقير قولهم وفعلهم، فهم لم يُسمح لهم بالحوار والتعبير عن أنفسهم فيرد عليهم القرآن محاولا ردهم للحق، ولا شك أن ذلك ليس ظلما لهم بل هو إعلان من الله عز وجل أنهم فئة لا تستجيب للخير وغير مستعدة لقبول الحق فالمشكلة عندهم ليست في العلم بالحق أو استخدام العقل للتأكد من صدق النبي صلى الله عليه وسلم فتحتاج إلى نقاش ومجادلة بالحسنى، وإنما المشكلة كما وضحها القرآن {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، المشكلة قلوبهم مريضة ما يعني أن العقل لا يعمل ولا يريد أن يعمل أي هو غير صالح لقبول وتلقي الحق والإيمان به فقد ختم عليه فلا يعرف الحق طريقا له، لذلك لم يتوجه الخطاب القرآني لهم بالحجة والإقناع، بل لم يتوجه القرآن بمخاطبتهم ولو لمرة واحدة وإنما توجه إلى كشفهم أمام أنفسهم وفضح مواقفهم وهذا ما يحتاجه المنافقون أن يروا حقيقتهم ربما قبح هذه الحقيقة يصدمهم ويردهم إلى الحق.

ولعل هذا ما يفسر لنا لماذا نجد النداء في القرآن مثلا {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، {يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} فهؤلاء حقيقتهم معروفة، ولا نقرأ آية واحدة {يا أيها المنافقون} وإنما كان الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} ليخبره بصفاتهم ويفضحهم أو ليرشده لكيفية التعامل معهم.

فالقرآن منزل من عند الله خالق كل شيء وعالم كل شيء لذلك كان التعامل عبقري معهم يوضح فهماعميقا لنفوسهم وما يصلح من معاملتهم، فهؤلاء المنافقون الحوار معهم لا فائدة منه، إضافة أنهم مزدوجي الشخصية فلأي شخصية يوجه الحديث، كما أن المنافقون ليسوا فقط قوم قلوبهم مريضة، بل طبع عليها فلا تشفيها أدلة شرعية ولا قرائن عقلية لذلك لم يحث القرآن النبي أو المؤمنين على حوار المنافقين، بل أمرهم بالإعراض والصفح عنهم، أو جهادهم والغلظة عليهم حسب ما تمليه الظروف وخطورة النفاق قوة وضعفا.

وما سوى ذلك فلا فائدة منه فهم يسعون دائما إلى إلحاق الأذى بالمجتمع المسلم، ولا يسعون للبحث عن الحقيقة ولا النصيحة للمسلمين، وإنما يسعون لإثارة الفتن، والصد عن الإسلام وهدمه، لذلك هم في أفعالهم وأقوالهم دائما لا يتوجهون إلى أهل العلم الذين يملكون الحجة والدليل ولديهم القدرة على كشف نفاقهم أو النقاش والحوار معهم لردهم إلى الحق فهم لا يبحثون عن الحق، بل يتوجهون إلى عامة الناس ممن قد يصدق كذبهم وتلبيسهم لقلة علمه وجهله بحالهم فينشروا بينهم سمومهم من أكاذيب وإشاعات لصدهم عن الدين إن استطاعوا، ونحن نرى ما يؤيد ذلك في كثير من مواقفهم التي أشارت إليها السيرة النبوية وذكرها القرآن الكريم، وكيف كانوا يفتعلونها بين عامة المسلمين بعيداً عن سمع النبي صلى الله عليه وسلم وعن كبار أصحابه الذين يملكون القدرة على التصدي لهم، حتى إذا ما افتضحوا جاؤوا يحلفون الأيمان المغلظة أنهم ما قالوا ولا فعلوا وهذا حالهم منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآن ولن يتغير.

فهم طائفة ذات أهداف وأغراض خبيثة، يرغبون في السيطرة وتولي الحكم، يريدون الدنيا والاستحواذ عليها فلا حياة غيرها لديهم، ولكنهم لا يملكون أي من المقومات الذاتية أو العلمية أو الدينية لتحقيق ذلك، لذا لا مجال للوصول لأهدافهم تلك إلا بالوقيعة بين المسلمين ومحاولة إحياء النعرات القومية والعصبية بينهم، وتخريب قواعد الإسلام التي أسسها وغرس بذورها رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ عصر النبوة وحتى الآن، فمثلا نلاحظ في زمن النبوة كيف حاولوا النيل من روابط المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والتي وضع قواعدها الرسول الكريم، وقطع المال

عن المهاجرين، إضافة إلى محاولة إشاعة الفاحشة، والنيل من سمعة قيادة الدولة الإسلامية في حادثة الأفك.

فالمنافقون وكما بين القرآن حقيقتهم بعبقرية شديدة مرضهم في قلوبهم فهم فئة تطمع فيما لا تستحق وليست هذه مشكلة، المشكلة أنها لا تستطيع الوصول إليه، فهم لا يملكون قيمة أو مكانة إيمانية أو علمية لذلك الحل الوحيد بالنسبة لها هو تدمير المجتمع الإسلامي والطعن في الدين وهدم ثوابته، فلا مجال لتحقيق أي مكسب بطريقة أخرى من وجهة نظرهم.

ومن حفظ الله لهذه الأمة أن حذرنا منهم، وحدد كيفية التعامل معهم في العديد من الآيات، فقد وضع الله سبحانه وتعالى وصفة قرآنية متعدة الخطوات للتعامل معهم وكف شرهم، فحث القرآن الكريم على:

1- عدم موالاتهم والاستجابة لهم، قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}.

2- عدم المجادلة والدفاع عنهم، قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا}.

3- زجرهم ووعظهم، قال تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}

4- عدم الصلاة عليهم عند موتهم، قال تعالى {وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}

5- جهادهم والغلظة عليهم وهذه آخر الوسائل، قال تعالى {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنافقون

نشط المنافقون منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم لتحقيق أهدافهم الخبيثة، مستخدمين كل وسيلة ممكنة لمحاربة الإسلام والقضاء عليه، وكان النبي على علم

بهم وبأفعالهم فكيف يتعامل رسول صلى الله عليه وسلم مع هذه الفئة الضالة ليمتص حقدهم ويواجه شرهم؟ هل يقسو عليهم أم يلين لهم؟

توضح لنا الأحداث كيف تعامل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بلين وحرصه على استخدام طريقة احتوائية حافظ بها على وحدة الأمة وتماسكها، ووضع القيود التي أعاقت قادة النفاق عن إحداث الفوضى ونشر الفتنة.

فرغم أن رسول الله يعرف المنافقين بشخوصهم إلا أنه لم يعاقبهم على نفاقهم، ولم يعلن أسمائهم للصحابة صراحة، غير ما كان من أخباره حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقط بأعين المنافقين ولم يخبر غيره، هل تعرفون لماذا؟

لما جُبل عليه من كتمان السر فقد كان الرسول الكريم حريص ألا يعرف أحد شيئا عن حقيقة المنافقين ومن هم فعليا.

وقد يقول قائل إذا كان النبي حريصا ألا يعرف أحد من هم المنافقين تحديدا لماذا إذا يُطلع حذيفة على أسمائهم؟

نقول فعل ذلك ليحمي الأمة من بعده من شرهم، فهم يعرفون أن هناك من يعرفهم تحديدا فلا مجال لأي محاولة تنال الإسلام والمسلمين، كما أنه لا مجال أن يتولوا أمر المسلمين أو الإمارة عليهم، فكان الصحابة يسألونه كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل قبل تعيين أي والي له، كذلك ربما ليُنفذ فيهم أمر الشرع عند موتهم فلا يصلي عليهم كونهم منافقين.

لكن لماذا لم يعاقب الرسول المنافقين؟

يمكن القول أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك عقابهم لمصلحة تأليف القلوب، وإخماد الفتن ولعدم تنفير الناس عن الإسلام.

فعن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "... قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: أَلاَ نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الخَبِيثَ ؟ لِعَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) "

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: والنبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له: ألا تقتلهم ؟، لم يقل: ما قامت عليهم بينة، بل قال: (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) فالجواب يوضح: أنه كان في ترك قتلهم مصلحة تتضمن تأليف القلوب على

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجمع كلمة الناس عليه، خاصة أنه كان في قتلهم تنفير الناس عن الإسلام، والإسلام بعد في غربة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أحرص شيء على تأليف الناس، وأترك شيء لما ينفرهم عن الدخول في طاعته.

وأشار إلى ذلك أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال:

فإن قيل: فلم لم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم مع علمه بنفاق بعضهم وقبل علانيتهم ؟

قلنا: إنما ذاك لوجهين

أحدهما: أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة، بل كانوا يظهرون الإسلام، ونفاقهم يُعرف تارة بالكلمة يسمعها منهم الرجل المؤمن، فينقلها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيحلفون بالله أنهم ما قالوها، وتارة بما يظهر من تأخرهم عن الصلاة والجهاد، واستثقالهم للزكاة، وظهور الكراهية منهم لكثير من أحكام الله، وعامتهم يعرفون في لحن القول.

ثم جميع هؤلاء المنافقين يظهرون الإسلام، ويحلفون أنهم مسلمون، وقد اتخذوا أيمانهم جنة.

وإذا كانت هذه حالهم: فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقيم الحدود بعلمه، ولا بخبر الواحد، ولا بمجرد الوحي، ولا بالدلائل والشواهد، حتى يثبت الموجب للحد، ببينة أو إقرار... فكان ترك قتلهم، مع كونهم كفارا: لعدم ظهور الكفر منهم بحجة شرعية.

الوجه الثاني: أنه صلى الله عليه وسلم كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقائهم، وقد بين ذلك حيث قال: (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه).

وأن يخاف من يريد الدخول في الإسلام أن يُقتل مع إظهاره الإسلام كما قُتل غيرُه

وقد كان أيضا يغضب لقتل بعضهم قبيلتُه، وناس آخرون، ويكون ذلك سببا للفتنة، فما جرى في قصة عبد الله بن أبي لما عرّض سعد بن معاذ بقتله خير مثال لذلك، إذ خاصم له أناس صالحون وأخذتهم الحمية، حتى سكَّتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استأذنه عمر في قتل ابن أبيّ والحاصل: أن الحد لم يقم على واحد بعينه، لعدم ظهوره بالحجة

الشرعية التي يعلمه بها الخاص والعام، أو لعدم إمكان إقامته، إلا مع تنفير أقوام عن الدخول في الإسلام، وارتداد آخرين عنه، وإظهار قوم من الحرب والفتنة ما يزيد فساده على فساد ترك قتل منافق.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "لما كان يوم حُنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة

وإنما كان عطاء النبي صلى الله عليه وسلم، غنائم حنين الكثيرة الضخمة من سادات القبائل، وأشراف القبائل؛ تأليفًا لهم، لأنهم كانوا حدثاء عهد بالإسلام، وكان يخشى عليهم، فأراد أن يثبتهم وأعطاهم كثيرًا، وأعطى أناس من المتهمين بعداوته، والتأليب عليه أيضاً، وأعطى أناساً من أشراف العرب؛ ترغيبًا لهم في الدخول في الإسلام.

وعطاء النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء ضمن قوله تعالى "المؤلفة قلوبهم" لتثبيتهم، وأعطى أناساً لكف شرّهم.

فقام رجل من المنافقين وقال: "والله إن هذه لقسمة ما عُدل فيها، وما أُريد فيها وجه الله "، أتهم خير البشر أنه ليس عنده إخلاص، وقسم قسمة ما أُريد بها وجه الله. فماذا فعل النبي في الرد على هذا المنافق؟

غضب النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع هذا غضباً شديدًا، واحمرّ وجهه، وقال أحد الصحابة: "حتى تمنيتُ أني لم أذكره له"، مما رأى من المشقة التي بدت على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال عليه الصلاة والسلام: فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله ؟ ثم قال صلى الله عليه وسلم: يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر، وهذا ما فعله النبي صلوات الله وسلامه عليه، الصبر على المنافقين للحفاظ على وحدة الأمة.

ومع ذلك فالصحابة رضوان الله عليهم، وإن لم يعلموا بعض المنافقين إلا أنهم كانوا يعرفونهم أيضاً بصفاتهم، ومن ذلك قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو يتحدث عن صلاة الجماعة "ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق"، وقال كعب رضي الله عنه وهو يحكي قصة تخلّفه عن غزوة تبوك: "فطفقتُ

إذا خرجتُ للناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أني لا أرى لي أُسوة إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

ومع ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أحيانًا يفضح بعض المنافقين بأشخاصهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال شهدنا خيبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ممن معه يدعي الإسلام: هذا من أهل النار، إذا هو يدعي الإسلام، كان اسمه قزمان، ولابد أنه منافقا، وإلا لم هو من أهل النار؟

فلما حضر القتال قاتل الرجل أشدّ القتال حتى كثرت به الجراح، فكيف يكون من أهل النار وهو بهذه الشجاعة؟. فقيل: يا رسول الله، الذي قلت له: إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديدًا، وقد مات، فقال النبي صلى الله عليه سلم: إلى النار فكاد بعض الناس أن يرتاب، رأوا أمامهم شخص قاتل قتالا شديدا، وجرِح، ومات، كيف يكون إلى النار؟ فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت، ولكن به جراحًا شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأُخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله هذا جاء بالوحي، فاتضح بعد ذلك أن الرجل انتحر، ثم أمر بلالاً فنادى بالناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والمنافقون ما زالوا، ولا يزالون إلى يوم القيامة يعني من جهة الوجود، فلا يمكن أن يزول المنافقون من الأرض بالكلية، سيبقى المنافقون في الأرض ما بقي الناس فيها، إنهم صنف موجودون باستمرار.

وقد عانى منهم النبي صلى الله عليه وسلم معاناة عظيمة؛ لأنهم يدعون الإسلام، ويخالطون المسلمين. ومع ذلك لم يعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أسمائهم، ولم يقم عليهم الحد بقتلهم فكيف كانت خطته في التعامل معهم ؟ أو لنقل ما هي الوصفة النبوية للتعامل معهم ؟

تطور تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع المنافقين

دخل كثير من العرب في الإسلام، وأصبح المسلمون قوة كبيرة لا يستهان بها، لها أعداء يتربصون بها خارج المدينة المنورة وهذا وضع طبيعي ومفهوم ويمكن التعامل

معه، لكن الأمر غير الطبيعي هو ظهور عدو جديد يختلف عن العدو التقليدي سواء من اليهود المقيمون في المدينة أو مشركي قريش ومن والاهم، فقد واجه الرسول وأصحابه عدوا جديدا، يشن عليهم حربا من نوع جديد حربا مختلفة عن الحروب التي اعتادوا مواجهتها، فهي بزعامة قادة مسلمين أو هكذا يزعمون، فهم فئة أعلنت الإسلام كرها وأضمرت الكفر حبا واقتناعا، فهو عقيدتها ودينها المؤمنة به ولكن لا تستطيع إعلان ذلك والجهر به. وبدأت شرارة حربهم منذ العام الأول من الهجرة، أي مع نشأة الدولة الإسلامية، بدأت حرب النفاق.

ومع علم الرسول صلى الله عليه وسلم بالمنافقين وما يسعون إليه، بل معرفته لهم بشخوصهم لم يؤاخذ النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين إلا بما بدر منهم، مع أنه كان في إستطاعته أن يعاقبهم فهو يعلم نفاقهم، لكنه الرحمة المهداة كان يحاول إصلاحهم حتى يعودوا للحق، ويكونوا أفراد صالحين، خاصة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أُمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويترك سرائرهم إلى الله، مع جهادهم بالعلم والحجة فربما تطمئن بعض القلوب الحائرة منهم للحق. لكن مع زيادة المنافقين وتطور أفعالهم، سلك النبي صلى الله عليه وسلم طرق كثيرة ومتنوعة للتعامل معهم بما يتناسب مع أفعالهم وسلوكهم، فتغاضي وعفاعن بعض الأخطاء، وقبل منهم الأعذار الكاذبة، ما جعل بعض الصحابة يطالبونه بقتلهم. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفض معاملتهم بالعنف والحدة وفضل اللين والرفق في معظم الأحيان، مع التعريض بهم أحيانا أخرى، واستخدام الشدة إذا لزم الأمر، فقد تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل النفاق بحكمة وذكاء شديدين يدلان على عبقرية فذة ومعرفة تامة بنفسية المنافقين وكيفية السيطرة عليها ومداواتها فقد كان على علم تام بالداء وكل أعراضه، وبالتالي كان يتقن تحديد الدواء المناسب له باعتباره مرض مزمن ملازم لأمته إلى قيام الساعة، فهم ليسوا فئة ظهرت في زمنه ثم تختفي ولكنه مرض لا علاج له، وفيروس لا يزول، وبالتالي كان لابد من استخدام أكثر من طريقة للتعامل معهم، والحد من شرورهم مع إعطاء وصفة صالحة في كل زمان ومكان للتصدي لهم، فكان صلى الله عليه وسلم يعاملهم بأساليب مختلفة، تتفق مع أفعالهم، ومدى خطورتها على الإسلام والمسلمين، إذ كان همه الحفاظ على أمن واستقرار الدولة الإسلامية الناشئة في عهده، واستمرار هذا الاستقرار من بعده، فكان من وسائله في التعامل معهم:

الصبرعليهم وعدم إجبارهم على المشاركة في الجهاد

رغم أن بعض المنافقين كانوا يعاملون النبي صلى الله عليه وسلم بسوء أدب، وكانوا يظهرون أحيانا كرههم له وللإسلام، ويرفضون المشاركة في أي عمل للجهاد في سبيل الله تعالى، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصبرعلى سوء معاملتهم، ولا يجبرهم على تقديم أي نوع من أنواع المساعدة للمسلمين في جهادهم في سبيل الله سواء مادية أومعنوية، ومن المواقف المعبرة عن سوء أدبهم في التعامل مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

موقف المنافق مربع بن قيظي إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين كان عامدا لأحد يريد طريقا مختصرا يمر منه: «لا أحل لك يا محمد إن كنت نبيا، أن تمر في حائطي»، بل أكثر من هذا، أخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال: «والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به»، فما كان جواب الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الفعل إلا الصبر وعدم معاقبته وإنما قال حين عزم بعض الصحابة لقتله: «دعوه فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة». وأمر الجيش بعدم المرور بحائطه رغم سلاطة لسانه الذي يقطر حقدا وكرها للرسول الكريم.

عدم التصريح بأسمائهم ومعاملتهم بالظاهر

أخبرالله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بأخبار المنافقين التي تحددهم وتميزهم، فقد قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ}، قال أنس: «فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم، عرفه الله ذلك بوحي أوعلامة، عرفها بتعريف الله إياه»، فقد ظن هؤلاء المنافقون أن الله لن يظهر ما في قلوبهم من حقد وكره، وهذا محال فالابتلاء سوف يظهرهم ورسول الله سيعرفهم من أقوالهم الدالة على كذبهم ونفاقهم، ورغم معرفته بهم لم يعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء المنافقين وفضل أن تكون أسمائهم سرا لا يعلمه أحد. لم يخبر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة عن المنافقين، سوى

صحابي واحد هو حذيفة بن اليمان، وترك ذلك سرا وربما السبب في ذلك رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم:

. أن يعطينا درسا عمليا في تجنب سوء الظن بالمسلمين، وأن نحكم على الناس بظواهرهم، ونترك سرائرهم لله عز وجل.

. أوترك الباب مفتوحا أمام المنافق للتوبة والرجوع إلى صحيح الإيمان.

. أو أن يتعلم المسلمون أنهم إذا كانوا أمام أختيارين إما إظهار أمرالمنافقين وفضحهم أوإخفائه، فالأولى الأخفاء وسترهم حتى لا تشتعل نيران فتنتهم بين المسلمين. إذ لو فضح النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم، لأدى ذلك إلى فتنة عظيمة، فهؤلاء المنافقين كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة، ولو تم فضحهم لعيرت كل قبيلة غيرها بمنافقيها، وربما أدى ذلك إلى نبذهم داخل المجتمع، وذلك قد يكون سببا في عدم توبتهم، كما قد يكون سببا في حدوث الخلافات والقتال بين القبائل، إذ تعير القبيلة بالمنافقين فيها. لذلك عامل الرسول صلى الله عليه وسلم المنافقين الذين كان كفرهم أشد من كفر الكفار معاملة المسلمين في أحكام الدنيا، فلم يفرق بينهم وبين غيرهم من صحابته رضي الله عنهم، على رغم أن أفعالهم دالة على كفرهم بالله ورسوله وباليوم الآخر.فمن أظهر الإسلام، وإن دلت القرائن على كفره، لا يعامل معاملة الكفار حتى يكون كفره صريحا بإعلانه ذلك كما نرى من هدي النبي صلى الله عليه وسلم. حتى عندما كان بعض أصحابه يستأذنونه في قتل المنافقين، لما يظهر لهم من أن نفاقهم اعتقادي، ما يعني أنهم كفار،وليسوا بمسلمين. فكان صلى الله عليه وسلم لا يوافقهم، ويعلل ذلك بأنه قد أظهر للناس أنه من المسلمين، والإسلام يعصم دمه وماله، فإذا أذن في قتله ظن الناس أن محمدا يقتل من آمن به مما يجعل الناس تعزف عن الدخول في الإسلام ما يشكل دعاية سيئة لدين الإسلام.

عرض أرائهم مع قبولها

سمح النبي صلى الله عليه وسلم للمنافقين أن يعبروا عن رأيهم، وقبولها أحيانا. كما نرى في قصة عبد الله بن أبي مع بني قينقاع، فلما فعل بنو قينقاع ما فعلوا بالمرأة المسلمة، وهددوا النبي صلى الله عليه وسلم، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، حتى

نزلوا على حكمه. فتدخل المنافق عبد الله بن أبي، ليمنع عنهم العقاب، فقال: «يا محمد أحسن في موالي»، فأبطأ عليه رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، فقال: «يا محمد، أحسن إلى موالي»، فأعرض عنه، فأدخل يده في درع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرسلني»، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا، ثم قال: «ويحك! أرسلني»، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة؟ إني امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هم لك». فلم يرفض النبي صلى الله عليه وسلم أن يبدي هذا المنافق رأيه، بل سمع له حتى انتهاء كلامه والتعبير عما يريد. ولم يكتف بذلك بل أجاب طلب ابن سلول ونزل له عن رأيه وترك له أمرهم رغم رغبته في عقابهم على فعلتهم، حفاظا على وحدة المسلمين وتماسكهم.

رد إرجافهم وكذبهم

كان من أهداف المنافين إضعاف الإسلام والقضاء عليه، ولتحقيق ذلك كانوا يشككون في انتصارات المسلمين، ويحاولون دائما تثبيط همم الصحابة رضوان الله عليهم، وتصوير ما يقومون به مغامرات نتائجها ستكون كارثية عليهم. ففي غزوة الخندق مثلا لما ضيق العدو على المسلمين، وعظم البلاء عليهم، وجد بعض المنافقين ذلك فرصة لخلق البلبلة وتثبيط الصحابة، فقالوا: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»، فلما كثر الكلام، وتكلم المنافقون بكلام يسيء للرسول ويشكك في صدقه، تدخل صلى الله عليه وسلم ليعالج تثبيط المنافقين للمؤمنين وإثارتهم للفتن والإشاعات والتشكيك في نصر الله، فقال: «والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة والبلاء، فإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنا، وأن يدفع الله عز وجل مفاتح الكعبة، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله». فكان يرد باطلهم، ويقوي عزائم الصحابة، حتى لا يؤثروا في قوة إيمانهم وثباتهم ويفتحوا باب الشك في قلوبهم، وكان هذا هو هدفهم المرجو من أقوالهم.

المواجهة وترك التسامح عند الضرورة

في بداية ظهور الإسلام بالمدينة المنورة، ظهرت أعمال النفاق ولكن بشكل فردي وعفوي، كردة فعل لواقعة، أو إبداء رأي في أمر ما، كما حدث في غزوة بني المصطلق حين تشاجر رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فلما بلغ الخبر المنافق عبدالله بن أبي، قال: «قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». كلمات يقودها الحقد والكره والحسد للإسلام وأهله خرجت من فم ابن سلول، كانت تخرج فيصعب السيطرة عليها أوإخفائها. ثم مع الوقت ومع زيادة قوة الإسلام وشدة إيمان أنصاره وتعلقهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، زاد حقد وكره المنافقون فبدأ الأمر يتطور إلى التنظيم وترتيب اللقاءات الجماعية، لإعداد الخطط للنيل من الإسلام والمسلمين، فأصبح النفاق مخططا ومنظما لمواجهة الإسلام والقضاء عليه، ففي غزوة تبوك مثلا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبطون الناس عنه في غزوة تبوك. فكان رد الرسول صلى الله عليه وسلم شديدا وعنيفا ما يتناسب مع فعل المنافقين فأرسل إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا، كما أمر كذلك بهدم مسجد الضرار وتحريقه، فقد كان الهدف منه الكيد للإسلام وتفريق جماعة المسلمين، فقد تتطور الأمر من كلمات مسمومة تخرج عفويا حسب الموقف، إلى تخطيط وترتيب وتنظيم لاستئصال الدين، فكان لابد أن يتناسب رد الفعل مع خطورة فعل المنافقين.

عدم توليهم أي من المناصب والمسؤوليات

حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تجنب مخاطرالمنافقين، لذلك لم يول أحدا من المنافقين أمرا من أمور المسلمين، فهم طائفة لا أمان لهم ولا عهد ولا وفاء، بل هم أخطر على الإسلام من الكفار، إذ لا يشك فيهم المسلمون باعتبارهم أهل الإسلام، لكن ما تخفي صدورهم من كره وحقد لا يعلمه إلا الله.ولعل عدم توليتهم

من أسباب إعلام النبي صلى الله عليه وسلم بأسمائهم لحذيفة حتى يفضحهم إذا حاولوا إثارة الفتن، أو التصدي لمواقع قيادية.

عدم قبول عذر من يثبت كذبه ممن تخلف منهم عن الجهاد

قال تعالى: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ}

فقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقبل احدًا من هؤلاءِ الذين تخلفوا نفاقًا في صفوف المجاهدين بعد غزوة تبوك، فوجودهم بين صفوف المسلمين يشكل خطرا كبيرا وتهديدا عظيما لتحقيق النصر، إذ هدفهم دائما تثبيط المجاهدين ونشر الفتنة وإثارة الخوف بين صفوفهم ما يجعل منعهم من المشاركة في الجهاد أحد الوسائل لتحقيق النصر والفوز بالمعارك فوجودهم سبب للهزيمة وإضعاف عزيمة المؤمنين، لذلك كان الأمر الموجه للرسول، لا تسمح لأحد ممن تخلف عن غزوة تبوك أن يشارك معك في أية غزوة تخرج إليها بعد ذلك.

التعريض بهم بشكل مستمر

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة المنافقين في يوم الجمعة فالمنافقون يصلون معه الجمعة، عبد الله بن أُبي وأتباعه لا يستطيعون التخلف عن صلاة الجمعة وكانوا يسمعونها ويسمعون التعريض بهم كل جمعة فيقذف ذلك الخوف في نفوسهم من انكشاف أمرهم إذا صرح النبي صلى الله عليه وسلم بأسمائهم.

فعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان حين من الدهر، وفي صلاة الجمعة بسورة الجمعة، وإذا جاءك المنافقون".

قال النووي: "قال العلماء: والحكمة في قراءة الجمعة اشتمالها على وجوب الجمعة، وغير ذلك من أحكامها، كتحريم البيع بعد النداء الثاني مثلاً، وغير ذلك مما فيها من القواعد، والحث على التوكل، والذكر، وغير ذلك، وقراءة سورة المنافقين لتوبيخ حاضريها منهم من المنافقين، وتنبيههم على التوبة، وغير ذلك مما فيها من القواعد لأنهم ما كانوا يجتمعون في مجلس أكثر من اجتماعهم فيها ".

إذاً كان قرار الرسول صلى الله عليه وسلم دخولهم في جملة أتباعه مع علمه بما تخفي صدورهم ولكنه كان ينظر بعين متطلعة إلى المستقبل حريصة على ما يحقق مصلحة الدولة الناشئة، فلا مانع من احتوائهم داخل المجتمع المسلم حيث يكثر بهم سواد المسلمين، مع الحذر والحول بينهم وبين أن يكونوا أعواناً لأعدائه، وكذلك كان حريصا كل الحرص أن يساعدهم على النجاة من النار إذ مع كثرة ما يشاهدونه من آيات نبوته ودلائل صدقه قد يساعدهم ذلك في التحول إلى الإيمان الخالص والتخلص من النفاق، لذلك عمل على احتوائهم بين المسلمين، وبالفعل انقلب كثير منهم بعد ما تخبطتهم وساوس النفاق إلى إيمان لا تشوبه شائبة، لكن مع احتوائهم داخل جماعة المسلمين كان لابد أن يتابع كل خطواتهم ويحذر مكايدهم مع حرصه على عدم تولي أحد منهم شأن من شئون المسلمين، فإذا تجاوز شرهم الحد وعرض المسلمين ووحدتهم للخطر إذا لابد من الشدة وفضحهم لكسر شرهم والقضاء عليه.
وهكذا رأينا كيف ظهرت نبتة النفاق؟ وكيف ارتوت حقدا وحسدا على الإسلام والمسلمين حتى كبرت وأينعت؟ وكيف هي نبتة خبيثة لا يرجى منها خير ولا يصدر عنها إلا الشر؟ وأنها نبتة سامة تبث مرضا لا شفاء منه، لذلك حذرنا الله من خطرها وأكد علينا ضرورة الحذر منها ما دامت الحياة الدنيا.

الفهرس

لفظ المنافق وعبقرية الاستخدام..... 5
فما كان معنى المنافق عند العرب قبل الإسلام؟ 5
متى ولماذا ظهر لفظ النفاق ؟..... 7
تغير الظروف والأوضاع دون ظهور النفاق..... 11
استمرار تطور الظروف والأحوال وظهور النفاق..... 23
أسباب ظهور النفاق..... 24
المصالح وظهور النفاق..... 25
لكن من هو مؤسس حركة النفاق؟..... 28
من هوعبدالله بن أبي بن سلول؟..... 29
شخصيته القيادية..... 30
لكن ما هي الأحداث التي دفعت ابن سلول ليصاب بالنفاق؟ 32
بيعة العقبة الثانية..... 34
تعريف المنافق في الشرع..... 40
نماذج من أفعال المنافقين في زمن النبوة..... 41
غزوة بدر..... 41
بنود معاهدة المدينة الخاصة باليهود:..... 42
لكن هل يلتزم اليهود بما عاهدوا الرسول عليه؟..... 43
غزوة بني قينقاع..... 51
غزوة أحد..... 53
غزوة بني النضير..... 61
غزوة الخندق..... 65
غزوة بني قريظة..... 72

غزوة بني المصطلق 75
حديث الإفك 82
غزوة تبوك 84
مسجد ضرار 91
المنافقون والقرآن 93
عرض وتفسير سورة المنافقين 98
عرض آيات المنافقين في سورة براءة 104
المنافقون في السنة 149
ملخص لأهم صفات المنافقون 151
1-مرضى القلوب وكافرون: 152
2- مُفسدون يزعمون الإصلاح: 152
3- سفهاء متكبرون: 153
4- مخادعون متآمرون: 153
5- غادرون لا عهد لهم: 154
6- موالاة الكافرين: 154
7- يتربَّصون بالمؤمنين: 155
8- الحسد والفرح لما يصيب المؤمنين من سوء وشدة: 155
9- مُرجِفون مثبطون للهمم: 155
10- يتولّون يومَ الزَّحفِ: 156
11- يرفضون الحكم بما أنزل الله ويتحاكمون إلى الطاغوت: 156
12-الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف: 157
13- التلون والتملق: 157
14- تشويه الحقائق وتحريفها وبث الإشاعات: 157
15- دس الأفكار المنحرفة والمفاهيم الخاطئة: 158

16- إثارة الفتنة والوقيعة بين المسلمين:..... 158
17- التجسس وخدمة أعداء الإسلام:..... 158
18- الكذب وقول الباطل..... 159
19- حب الدنيا وعشق المال:..... 159
القرآن وعبقرية التعامل مع المنافقين..... 160
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنافقون..... 163
تطور تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع المنافقين..... 167
الصبرعليهم وعدم إجبارهم على المشاركة في الجهاد..... 169
عدم التصريح بأسمائهم ومعاملتهم بالظاهر 169
عرض أرائهم مع قبولها 170
رد إرجافهم وكذبهم..... 171
المواجهة وترك التسامح عند الضرورة 172
عدم توليهم أي من المناصب والمسؤوليات..... 172
عدم قبول عذر من يثبت كذبه ممن تخلف منهم عن الجهاد 173
التعريض بهم بشكل مستمر..... 173
الفهرس..... 174